

سمير شيخاني

مأساة إيفا براون

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

سمير شيخاني

مأساة إيڤا براون

دومينيكا دي كونستنزا

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

مقدمة

زيغفريد. الرجل الطاهر، الناسك العفيف. بهذه الألفاظ كانت الدعاوة النازية في الرايش الثالث تنعت ادولف هتلر. فالدور الذي مثلته ايفا براون في حياته الخاصة أصبح معروفاً من الجميع - وهو موضوع كتابنا هذا. على أن هناك لائحة طويلة تحوي اسم اثنتي عشرة من الحسان الألمانيات اللواتي كان لهن صلات غرامية بالرجل الذي حيكت حوله أساطير «الطهارة» وانعدام الحياة الخاصة. فقد كان للفوهرر علاقات غرامية سرية بهاته النساء قبل أن يصبح مستشاراً للرايش، وبعده.

وتأتي في رأس القائمة كلارا هوفمان، الصبية اليهودية الحسناء التي تعرّف إليها في فيينا السنة ١٩١٣ وتليها ثلاث نساء من الطبقة الارستقراطية البافارية، فأنغيليكا، ابنة شقيقته التي توفيت اثر اجهاض، ففتاة في الخامسة عشرة من عمرها، هي ابنة حارسه في برشتسغادن، وقد انتحرت بإلقاء نفسها في البحيرة. وكثيرات سواهن، حتى نهاية اللائحة غير القصيرة حيث يبرز اسم الفنانة ليديا باروفا، غريمة ايفا

براون الأولى، وخليلة الدكتور غوبلز، وماغدا غوبلز، زوجة وزير الدعاية النازية، والسيدة لاي، زوجة زعيم جبهة العمل النازية، والممثلة السينمائية ليني ريفنشتال، الفتاة الأولى في الرايش الثالث، وزوجة فيليب بوبلر وزير الدولة، وقد انتحرت وزوجها فيما بعد..

* * *

عثر رجال الاستخبارات في الجيش الأميركي على اثر احتلال ألمانيا على مجوهرات ايفا براون، ووقعوا في الوقت نفسه على مجموعة صور تمثّل هتلر وايفا في أوضاع مختلفة، كما تمثّل «الفوهرر» محتضناً طفلة جميلة أو ملاعباً إياها. ووُجد بين هذه الصور واحدة كتب عليها: «نيسان ١٩٤٤ هذه صورة أخرى للفوهرر يلاعب اوسشي وعمرها ثلاث سنوات.»

وقد استَنْتجَ رجال الاستخبارات من هذه الصورة ان هتلر رُزق بنتاً من ايفا براون لأن الصغيرة تشبه زوجة الدكتاتور الألماني شبهاً عظيمًا. ولكن فريتز براون، والد ايفا، يؤكد ان ابنته لم تُرزق أولاداً، وان الفوهرر لم يعرف امرأة غير ايفا كي يصح القول ان الطفلة ابنته من امرأة أخرى.

ووقع الأميركيون على دفتر صغير دوّنت فيه ايفا براون يومياتها اعتباراً من أول كانون الثاني ١٩٣٥ - أي من اليوم الذي عرفت فيه هتلر وأحبته. وفي القسم الأول من اليوميات تُسرّ ايفا إلى الدفتر الصغير بأفراحها، وهواجسها، وآلامها،

ومخاوفها. فهي تحب الفوهرر وتعتقد أنه يبادلها الحب، ولكنه «ينسى أحياناً أني وإياه على موعد. فأقلّ حادث يصرفه عني.» وتكتب في موضع آخر: «أمس كنت أتمنى الموت لأنه اغفل شأني أسبوعاً. أما اليوم فأكاد أجنّ من الفرح لأنه زارني ولاطفني.»

وفي أيار ١٩٣٥ انصرف هتلر عنها إلى مزاحمة خطرة تدعى «فالكور»، فكتبت إليه تناشده العودة إليها، فلم يعد، فدوّنت في يومياتها: «إذا لم يطرق بابي قبل العاشرة ليلاً أتناول سمّا وأنام نوماً أبدياً.»

ولكنه عاد فطرق بابها، وعرفت مذ ذاك كيف تحتفظ به.

بيروت، نيسان ١٩٨٢
سمير شيخاني

الفصل الأول

عاشقة كبرى



سيأتي يوم ينسى فيه العالم الذي مزّقته الحرب العالمية الثانية أحزانه، ويدفن أحقاده، وينصف طهارة الحب الذي كانت ايفا براون تكنّه لأغرب مخلوق أنجبه عصرنا هذا.

سيأتي يوم يفحص فيه المؤرخون دون تغرّض آلاف الشهادات التي تتضمن اسم التي دعيت «مستشارة الرايش الثالث السرية المسموعة الكلمة». فيقتنعون بنبل، ونزاهة، وتضحية هذه المرأة التي لم تتردد، بالرغم من الأوامر الصادرة إليها، في اللحاق بحبيبها إلى ملجأ قصر المستشارية لتشاطره مصيره المفجع بعد أن أبقاها العهد النازي في الظل ليتيح لأسطورة «هتلر، الرجل الذي لم يعرف النساء» أن تُستخدم لأهداف الدعاوة.

ومكافأة لها على هذا الاخلاص قرر الفوهرر الاقتران بها. وللمرة الأولى ورد اسم المرأة الشابة في وثيقة رسمية من وثائق الرايش الثالث، هي وصية هتلر التي تُستهل هكذا:

«هذه هي وصيتي. فعلى الرغم من انني اعتقدت خلال

سني الكفاح انه لا يسعني تحمّل مسؤولية الزواج، فقد قررت أن أتخذ شريكة لحياتي تلك المرأة التي رضيت مختارة أن تأتي إلى هذه المدينة المحاصرة لتشاطرني مصيري بعد سنين طويلة من الصداقة الخالصة.»

إن هذه المكافأة لتبدو حقيرة بالنظر إلى السنوات الطويلة من الاخلاص، والمحبة، والحنان، وإنكار الذات. ومع ذلك، فإننا عندما نتعرف إلى ايفا براون من خلال شهود حياتها، يبدو لنا أكيداً انها اعتبرت هذه المكافأة أكبر دليل على الحب. وعندما غُلب سيد أوروبا السابق على أمره، وأضحى في الملجأ. وأعلن لأصفيائه الباقين أنه اعتزم وضع حد لحياته، أضاف قائلاً:

- إن إيفا ستموت معي. فلقد استحقت ذلك!

مكافأة مثلى، تصريح عفوي يفيض رقة ومحبة، أقلّ وقاحة مما يمكن أن يعتقده امرؤ غير مدرك. فقد استحقت إيفا أن تموت بقرب حبيبها. وهذا العمل الأخير يُضفي، في النهاية، على حياتها الغامضة معنى، أي معنى. فهو للأجيال الآتية يقرن بصورة حاسمة اسمها باسم الفاتح الهاوي. وان رماد جثتيهما الممتزج سيختلط بوحول حديقة قصر المستشارية وحصبائها. وهذه الخاتمة الفاغنرية لهي على مستوى حبهما. وعبثاً نفتش في التاريخ فلا نجد امبراطوراً، أو فاتحاً، أو زعيمًا استطاع أن يثير عاطفة خالصة منزّهة مثل تلك

العاطفة. وسيأتي يوم تحتل فيه إيفا براون مقامها في قاعة العاشقات الكبيرات، إلى جانب ايزولت أو كليوباترة. فلقد كانت «البورجوازية الصغيرة من ميونيخ» غافلة عن عظمتها الشخصية.

عرفت كيف تغزو قلب الرجل الذي كان يتظاهر بكره النساء. ففي كل مرحلة من مراحل حياته كان يبدي علناً كرهه واحتقاره للجنس الضعيف، في حين كان يحتاج إلى وجود إيفا بقربه ليستعيد هدوءه بعد نوبات الهذيان الهستيري التي كان يسببها له تطور الموقف السياسي. فإذا كانت لديه شكوك فإنها كانت تسعى لأن تعيد إليه الثقة بنفسه. وإذا كان ينتقل من نصر إلى نصر فإنها لم تكن لتألو جهداً في إبداء الاعجاب الذي يقوّي من عزيمته ويزيده ثقة بعبقريته.

وإذا ما نظرنا إلى القضية من الناحية الانسانية الصرف فإن تأثير إيفا كان يمكن أن يكون مسيئاً مفسداً بمعنى ان اخلاصها، كإخلاص الكثيرين من المقرّبين إلى هتلر، كان تشجيعاً مستمراً له على جنونه الهدام. ولكن إذا كان تدخّل الباقين مردّه إلى أسباب متعددة لم تكن المصلحة الشخصية غريبة عنها، فإن إيفا لم تكن لتسعى إلا وراء سعادة سيدها وراحته.

عندما أطلقت على إيفا براون لقب: «البورجوازية الصغيرة من ميونيخ» تعمّدت ذلك عمداً. فقد كان حب إيفا براون

لأدولف هتلر حباً بورجوازياً صرفاً. وخياناتها كانت خيانات فتاة بورجوازية، واستسلام امرأة مخذولة لشهوة لم يكن حبيبها ليستطيع اشباعها، ولكنها على أي حال، تقع على غير صعيد الحب العظيم الذي كانت تكنّه له. لقد كانت ترخي لجسدها العنان بسهولة، ولكن روحها وهبته إياها بصورة نهائية. وللحكم عليها ينبغي اللجوء إلى أقسى موجبات الأخلاق التقليدية.

كثر الحديث عن تأثير هتلر المغنطيسي على النساء، كما كثر الحديث عن العديدات من النساء اللواتي مثّلن دوراً في حياته، فكنَّ سريعات التأثر به كما تتأثر الفراشات بالنور، أو راغبات في ترويض هذا الرجل الغريب، الذي لا يُدرك. سوى ان واحدة منهن لم تستطع القيام بهذه المهمة، وفشلن جميعاً في هذا النزاع المتفاوت سواء كنّ ليني ريفنشتال، أو آدا كلاين، أو لولا ايب، أو غيرهن من النساء. فجميعهن، باستثناء ايفا براون، لم يكن لديهن أي عدة للمستقبل، وأي أمل، وأي حساب.

ولا يسع المرء أن يسقط من حسابه التوتر الدائم، وفقدان التوازن المتواصل، وعوامل الفساد التي يمكن أن تحملها إلى حياة امرأة طبيعية المعاشرة المتواصلة لرجل هو فريسة الجنون ـ جنون العظمة ـ تغذي فقدان توازنه كل يوم مخدرات الدكتور موريل المشؤوم وحقنه. وقد اجتازت هذا الامتحان امرأة أخرى ولكنها لم تعمّر طويلاً، فماتت قبل أن يتعرف

هتلر إلى إيفا براون بزمن طويل. سوى أن إيفا، حتى ولو عرفت بمصير غيلي راوبال قبل أن تمسي عشيقة هتلر، لما ترددت في مشاطرته حياته، حتى ولو انتهت إلى النهاية نفسها.

وقبل أن نتناول بالسرد حياة إيفا براون وموتها اعتقد أن من الضروري إلقاء الضوء على فترة يكتنفها بعض الغموض من حياة هتلر العاطفية.



كانت حياة هتلر السنة **١٩٢٥**، اثر خروجه من سجن لاندسبرغ، تنقضي بمعزل عن النساء. وفي خلال ما يمكن تسميته بـ «سنوات البطولة» كان أوتو شتراسر الذي يعرف كيف يكون خبيثاً، غالباً ما يمازحه في هذا الموضوع، فيقول له:

- ينبغي للدكتاتور الحقيقي، كي يستطيع أن يحكم حكماً صالحاً، أن يخبر الشعب، والطعام الشهي، والحب.

وكان ينفجر بالضحك عندما يتورد وجه ادولف خجلا وأمام زبائن مقهى هك (في شارع لودفيك) كان يربّت على ظهره مشيراً إلى موسوليني الذي كان فجوره، في ذلك العهد، حديث الساعة في الصحف، مضيفاً إلى ذلك قوله:

- إن باستطاعة النساء وحدهن تعريف السياسي بالرجال.

بيد أن النساء اللواتي دُعي زعيم الحزب الجديد إلى معاشرتهن حينذاك كالسيدة فون بفيفر، أو فينيفريد فاغنر، صرَّحن بأن السياسي المتضور جوعاً، بقبعته الرخيصة ومشمّعه، لم يكن عاشقاً كبيراً. ولم يبدُ أنه كان متنبهاً إلى أن معاضدة النساء له في العمل الذي باشره يمكن أن تفيده كثيراً. والواقع أن الكثيرات منهن، وقد جذبتهن شخصيته الفذة، لم يساومنه مطلقاً على مساندته.

يعود تاريخ أول مغامرة عاطفية لهتلر، الرجل السياسي ـ ولا نرجع إلى سني البؤس والشقاء في فيينا ـ إلى زياراته للمصور هاينريش هوفمان ـ وكان روحانياً بقدر ما هو فطن، وصحفياً في لندن قبل اقامته في ميونيخ. وإبان الحرب كان مراقباً ومصوراً في سلاح الطيران الحربي الألماني، فاز بعدة جوائز في مختلف المباريات. وسيجيء ذكره في سياق قصتنا لأن حياته العملية تتصل اتصالاً وثيقاً بتاريخ الرايش الثالث.

كان مسكن أسرة هوفمان ملتقى عدد كبير من الفنانين، وأغلبهم من الفنانين المتازين، وكانت ميونيخ عهد ذاك عاصمة ألمانيا الفكرية. وكان ادولف هتلر البرم بحياة العزوبة غالباً ما يتردد على هذا المسكن. ولا يغربن عن البال أنه كان مقتنعاً تماماً بمهارته الفنية، وأنه لم يهجر أسرته وهو في السابعة عشرة من سنيه، ولم يعش سنوات طوالاً وسط البؤس، إلا تلبية لميله الفني. حتى انه لم يتورع في أوج عزّه ومجده السنة

١٩٣٨ عن التصريح أمام سفراء الدول الغربية بما يلي:

ـ عندما تتم تسوية قضية السوديت، ويرفرف السلام من جديد، يمكن للشعب الألماني الاستغناء عن قيادتي. وعندئذٍ أغادر الحكم وأنصرف بكليتي إلى الرسم.

ولا يُستبعد مطلقاً أن يكون هتلر قد واجه هذا الحل وفكَّر جدياً، في لحظات اليأس والقنوط، في حياة ريفية بسيطة، في بيت صغير وسط الغابة السوداء برفقة إيفا براون، بعيداً عن هموم السياسة ومتاعبها. ولم تكن إيفا الرقيقة لتقف حجر عثرة في سبيل ذلك.

كان لهاينريش هوفمان ابنة تدعى هنرييت، ما لبثت صداقة غرامية أن ربطت بين قلبها وقلب ادولف. وفي خلال المناقشات التي كانت تدور في السهرات حول الموقد في بهو مسكن أسرة هوفمان، كان مكان ادولف دائماً بقرب هنرييت، على «الصوفا». وكثيراً ما كان يمسك أحدهما بيد الآخر، ما عدا في الحالات التي يندفع فيها السياسي الشاب وراء معتقداته، فيهبّ واقفاً ويروح يذرع القاعة جيئة وذهاباً بعصبية ظاهرة، ثم يلقي خطبه الارتجالية العنيفة.

بيد أنه سرعان ما كان يعود إلى مكانه المفضل تاركاً هذه الثواني الحلوة تنقضي رويداً رويداً. فإذا ما حانت ساعة الفراق خرجت هنرييت الصبية لتسير بضع خطوات تحت ضوء مصابيح الغاز، مخاصرة حبيبها.

سوى أن هذا الحب كان قصير الأمد، وتزوجت هنرييت فيما بعد من بالدور فون شيراخ، زعيم منظمات الشبيبة في الحزب النازي. وخلال مأدبة عشاء أفلتت منها هذه العبارة:
ـ أدولف؟ ولكنه يخشى النساء!

عند ذاك بدت غيلي راوبال في حياة هتلر.

وفيما يلي يروي ولتر غورلتز وهربرت كوينت في مؤلفهما «ترجمة حياة هتلر» بدء هذه العلاقات: «السنة **١٩٢٥** تسلمت أنغيلا راوبال، أخت هتلر من أحد والديه، وكالة قصر برغهوف، وكان لها ابنتان هما انغيلا وايلفريده. أما أنغيلا المولودة السنة **١٩٠٨** فقد كانت ملتحقة بمدرسة في بلدة لنتس، فتعرفت السنة **١٩٢٥** إلى خالها ابان رحلة إلى ميونيخ قامت بها مع أفراد صفّها. فلما غادرت المدرسة أبدت رغبتها في تعلّم الغناء تمهيداً لظهورها على المسرح. فأتاح لها هتلر تلقّي الدروس الفنية في ميونيخ، واستأجر لها مسكناً تأوي إليه غير بعيد عن مسكنه.

«وكانت أنغيلا ـ وقد دعوها غيلي للتحبب ـ صبية جميلة ممتلئة الجسم، شعرها كستنائي كعينيها، يشعّ منها السحر الذي تتميز به غالباً النساء اللواتي يجري في عروقهن الدم السلافي. وكانت رخيمة الصوت، بارعة في الرسم، شديدة الاهتمام بفنون التزيين. ولكن كان هناك أصدقاء يجدونها

رائعة الجمال، يعوزها الذكاء، وينعون عليها أحياناً التواء سلوكها.

«وسرعان ما اتضح جلياً أن الخال يضمر لابنة أخته حباً غير حب القربى والنسب. فلقد كان يحبها بجمّاع قلبه. ومن بين أجمل ذكرياته تلك الساعات التي كان يقضيها برفقة غيلي في جولات الشراء أو في دار الأوبرا.

«أما الفتاة فلم تكن مستقرة تمام الاستقرار. فعقدت خطبتها سراً إلى اميل موريس (سائق سيارة هتلر ورفيقه منذ الساعة الأولى)، وهو زير نساء، الأمر الذي أثار غضب هتلر وأخرجه عن طوره. ولا شك في أن ذلك كان السبب في طرد موريس من حلقة الأصفياء المقربين. ثم كانت لها وقائع مع رسام شاب، فمغنٍ «تينور» من فيينا، فعازف كمان من لنتس. وقد فكرت، ولا ريب، جدياً في الزواج من هذا الأخير.

«إلا أن هتلر عندما استقر السنة **١٩٢٩** في مسكن يتألف من تسع قاعات ويقع في شارع «الأمير الوصي» أسكن غيلي معه. ولم تكن لتهتم بالسياسة، بل كانت تعتز بأنها تحيا بقرب رجل شهير كخالها، وتشعر ببعض القلق لأنها كانت تحس بأن أكثر من امرأة تحسدها على ذلك وينبغي لها أن تتساءل عن خاتمة الأمر.»

هذا كل ما نعرفه رسمياً عن علاقات ادولف هتلر بابنة

أخته. فهل كانت هذه العلاقات أفلاطونية؟ إنه سؤال لا نستطيع الإجابة عنه إجابة أكيدة. فإذا لم تكن هذه العلاقات غير ما يوحي به هذا السر المتجرد، فكيف نفسر اذن الحوادث التي وضعت حداً لهذه الحياة المشتركة بصورة مفجعة؟

كانت آخر مقابلة جرت بين هتلر وغيلي في ١٧ أيلول ١٩٣١ فماذا كان موضوع محادثتهما الأخيرة؟ انه سر كذلك لن يجُلى أبداً. ومع هذا فإن الذين رافقوه في ذلك المساء إلى نورنبرغ - المرحلة الأولى من رحلة حملته إلى هامبورغ - لم يلاحظوا شيئاً غير عادي في سلوكه.

وقد قضى زعيم الحزب النازي وصحبه ليلتهم في فندق دويتشر هوف، ثم واصلوا السير في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي.

وما كادت سيارتهم تقطع بضعة كيلومترات حتى لحقت بها سيارة أخرى فأوقفتها. وأعلن سائقها مخاطباً هتلر:
- إنني موفد من مدير الفندق. فلقد وصلتك مخابرة تلفونية من ميونيخ، وتنبغي عودتك إلى نورنبرغ على عجل.

وأصدر هتلر الأمر بالعودة. وفي الفندق قدّموا إليه قصاصة ورق يطلب رودولف هس إليه فيها أن يتصل به على الفور. وما هي إلا ثوان قليلة حتى تم الاتصال بينهما، فسُمع صوت هس المخنوق يردد من الطرف الآخر لخط التلفون:

ـ لقد ماتت غيلي!

فصُعق هتلر وبقي صامتاً بضع ثوان.

ـ ماتت! ان ذلك لمستحيل. ماذا جرى؟

ـ لقد انتحرت، ومن المستحسن أن تعود في الحال.

وانتهت المخابرة، وشقَّ هتلر طريقه وسط رفاقه الواجمين الساهمين، قلقاً مضطرباً، وقال بكل بساطة:

ـ ماتت ابنة أختي، وينبغي أن أعود إلى ميونيخ!

وما أن دخل مسكنه في شارع الأمير الوصي حتى وجد فيه رجال الشرطة، ومربيته السيدة فنتر، والسيدة رايشارت، مدبّرة منزله العجوز، شديدة الحزن. وقد كان من عادتها، وهي مختلة العقل، أن تروح وتغدو في ممرات المنزل بقميص أبيض، وبيدها سكين. وكانت غيلي ترتعد فرقاً منها، وتقفل باب مخدعها بالمفتاح عندما تأوي إلى فراشها. وكان هناك كذلك رودولف هس، وبعض الأصدقاء المخلصين جاؤوا يؤاسون زعيمهم في محنته هذه.

وكان هتلر قد أصبح شخصية خطيرة لا يسعى رجال الشرطة إلى اقلاق راحته. وتقدمت منه السيدة فنتر وانفجرت بالبكاء والشهيق، قائلة:

ـ إني لا أفهم شيئاً، فقد كانت شديدة السرور بعد أن تركتك. وكتبت رسالة مطولة إلى صديقتها الفي سمهابر في لنتس لتخطرها بزيارتها لها. وألقيت بنفسي هذه الرسالة في

صندوق البريد قبل أن آوي إلى البيت. وكان في نيتها أن تكتب إلى شقيقتها كذلك. أنا لا أفهم شيئاً.

أما السيدة رايشارت فقد اقتصرت في أجوبتها عن الأسئلة التي طُرحت عليها على القول:

ـ لقد سمعت طلقاً نارياً وسط الليل، ولكنني لم أفكر انه انبعث من هنا.

وفي الممشى كان باب حجرة الفتاة مفتوحاً على مصراعيه وقد انتُزع منه القفل. فتقدّم هتلر يتبعه رودولف هس مشيراً إلى رفاقه بأن يدعوهما وحدهما. ولم تكن جثة غيلي في الحجرة، بل كان السرير في مكانه، مشوَّشاً، عليه بقع طفيفة من الدم. قال هس:

ـ لقد استدعتني السيدة فنتر هذا الصباح بعد أن وجدت أن غيلي لا تردّ عليها. فهرعت بأسرع ما يمكن إلى هنا، وخلعت الباب، فأبصرتها ممددة وبجانبها المسدس الذي اعطيتها إياه. فقد أطلقت رصاصة ناحية القلب. وكانت جثة هامدة.

وخيم الصمت برهة قبل أن يسأل هتلر:

ـ هل تألمت؟

فتردد رودولف هس قبل أن يجيب:

ـ هذا أفظع ما في الأمر. فالطبيب يقول انها بقيت في قيد الحياة حوالى عشر ساعات، وهي بلا وعي. ولو أن السيدة رايشارت أقلقها الطلق الناري لكان بامكاننا انقاذها.

وخاطبت بالتلفون صديقتها في لنتس فعرفت أنها ذات يوم، وكانت برفقة بعض الأتراب، انفجرت بالبكاء فجأة. ولم تشأ أن تدلي بالسبب.

ومسح هتلر جبينه بيده، وبدا حسيراً مضنى، ثم قال:

ـ انها ميتة الآن. ولم يبقَ لذلك أي أهمية.

وخرج من الحجرة ليجيب عن أسئلة رجال الشرطة. ولم يستطع أحد معرفة ما إذا كان يعلم الأسباب الحقيقية التي دفعت بالفتاة إلى الانتحار، أو ان كل ما جرى هو ما تضمَّنه تقرير الشرطة. أما استنتاجات الطبيب فكانت هي إياها في حالات مماثلة: انتحار في لحظات انهيار عصبي.

وعندما ووريت المسكينة الثرى في ميونيخ، حسب ارادة خالها، سألته أخته (والدة غيلي):

ـ لماذا أقدمت على هذا العمل؟

فأجابها:

ـ دعك من لومها فنحن جميعاً مسؤولون!

ويمكننا التقريب بين هذا الجواب وبين جوابه لإيفا براون فيما بعد، عندما طلبت إليه السماح لها بحضور إحدى الحفلات:

ـ كلا، يا فتاتي، فأنت أطهر من أن تختلطي بهذه الجماعة القذرة!

إن ردّ الفعل الذي أحدثه هذا الحداد في نفس هتلر،

والسر الذي يكتنف الأسباب العميقة الدافعة إلى هذا العمل اليائس، أثارا افتراضات شتى. وقد أشار إليها ولتر غورلتز وهربرت كوينت في كتابهما:

«لقد تعددت الشائعات، بالطبع: انتحرت لأنها كانت تنتظر مولوداً من هتلر، ورفض هذا الاقتران بها، وقد دفعها دفعاً إلى الانتحار. أو انها وضعت حداً لحياتها إما لأنه كان يلاحقها باستمرار لتنفيذ مآربه الدنيئة، أو لأنه لم يشأ أن يدعها تبتعد عنه وعن بطانته.

«وهناك من اتهم حرس هملر الأسود بمصرع غيلي لأنها حوَّلت اهتمام الفوهرر عن مهمته التاريخية. ولما كان يتعذر وجود الشهادات فمن الصعب اليوم معرفة ما إذا كان هناك انتحار أو حادث طارىء. والسيدة هس شخصياً لم تقتنع البتة بالانتحار.

«ومنع هتلر الحديث عن ابنة أخته في أوساط الحزب، واحترم ذكراها، وأمر بألاَّ يُمس شيء في الحجرة التي أقامت فيها. ولم يفتأ يردد أن موت الفتاة المسكينة قد أثّر في نفسه أكثر مما أثرّ في نفس أي كان. وأكد انه سينسحب تماماً من المسرح السياسي. ولكنه سرعان ما أعلن أنه «سيبرأ ويتعافى». وألقى بنفسه في المعركة بعنف وشدة كما لو كان هناك شيء يريد أن ينساه. واعتقد الكثيرون أن موت غيلي قد حوّله تحويلاً أساسياً، وانه لم يعد خالي الذهن. فهو لم

يحتفل مذ ذاك، مثلاً، بعيد الميلاد في برغهوف حسب التقليد القديم باشعاله الشموع المعلقة في شجرة العيد بنفسه. وقد اعترف فيما بعد بأنه فكر في الانتحار. وكان الرسام ادولف تزيغلر قد رسم لوحة لغيلي السنة ١٩٣٣ نقلاً عن صورة فوتوغرافية لها، فلما وقع نظر هتلر عليها جرى دمعه.»

* * *

من الثابت أن غيلي راوبال مثلت دوراً خطيراً في حياة سيد ألمانيا العتيد. لذلك آثرنا التحدث عن هذه المرحلة من حياته التي تلقي ضوءاً على سلوك الفوهرر فيما بعد مع النساء، وتوضح الشيء الكثير منه. ومع ذلك يبدو غريباً أن تستطيع امرأة أخرى هي إيفا براون أن تفرض نفسها عليه إلى درجة أن يتخذ منها رفيقة حتى يفرّق بينهما الموت ـ أو بالحري يجمع بينهما، ويوثّق صلتهما.

ويكفي القاء نظرة على الرسوم المأخوذة من المحفوظات المختلفة والتي نشرتها الصحف لمعرفة وجوه الاختلاف الكبير بين هاتين المرأتين. فغيلي سمراء من فيينا، يجري في عروقها دم سلافي، قلقة، غير مستقرة، وافرة المفاتن، وجهها اشبه ما يكون برسم جميل، في ميعة الصبا، قصيرة القامة. وإيفا براون جرمانية الشكل، شعرها كستنائي فاتح اللون حتى لتكاد تبدو شقراء، طويلة القامة، صدرها دقيق، صحيحة

البنية، محبة للحياة، باسمة ـ لم تخلق لتحيا المأساة التي عاشتها.

فمن كانت إيفا براون هذه؟

يبدو من الصعب معرفتها من خلال الأوصاف التي صُوِّرت بها، أو من الرسوم التي وُضعت لها. وهذه إحدى أمينات سر هتلر السابقات، وقد شاءت أن يبقى اسمها طي الكتمان، تصفها وصفاً يخلو من العطف والحنان:

«كانت إيفا براون ذات جمال متقلب جداً. فعيناها الكستناويتان وأهدابها الطويلة يمكن أن تسحر وتفتن. إلا انها كانت تفقد سحرها عندما تحرد وتطيل شفتيها عن استياء. فعند ذاك كانت ترتسم على حافتي شفتيها خدّتان تجعلانها تبدو عجوزاً شمطاء. وكانت سريعة الغضب والتأثر إلى أقصى الحدود، لأن الحالة الزائفة التي كانت تتخبط فيها كانت تملأ نفسها قلقاً واضطراباً.

«وعلى الرغم من ظهورها بمظهر الفتاة الشقراء الرقيقة النحيفة فقد كانت نشيطة وذات ارادة. وباذعانها الكلي لأهواء سيدها أمكنها أن تدعم موقفها شيئاً فشيئاً.

«وكانت شكسة، لا تملك السيطرة على نفسها، كثيراً ما تنفجر في سورات غضب أو حماسة وهوس. تبدي نفورها من الذين يقربونها، أو عطفها عليهم، دون تصنّع أو تلفيق.

وكانت انانية، باستثناء ما يتصل بأفراد أسرتها وصديقاتها الحميمات.

«سوى أن معظم وقتها كان وقفاً على العناية الفائقة بملابسها ومظهرها. وقد عُرفت بحبها الشديد للنظام والترتيب في كل الشؤون المتعلقة بها شخصياً. .»

وتقابل هذه الصورة الخالية من كل عاطفة صورة رسمها لها أرتور كاننبرغ، خادم هتلر الخاص ورئيس الخدم فيما بعد، وأسرّ بها إلى الكاتبة مرغريت هيغنز عندما جاءت تطلب إليه حديثاً السنة ١٩٤٥

«كانت السيدة براون تدلل دائمًا على الرزانة التامة، والسيرة التي لا تتبدل في حضرة هتلر الذي كانت تدعوه دائمًا «فوهرري». أما من الناحية الجسمانية فقد كانت السيدة براون تبدو شهوانية. وكان فيها ما يدعوه الأميركيون «سكس آبيل» (الجاذب الجنسي). وكان شعرها ناعمًا لا ترفعه أو تفتله في مؤخر الرأس، بل تدعه يتدلى حتى عنقها فتعقصه بابزيم كبير. وكانت ملامحها دقيقة، وعيناها واسعتين. .»

وتضيف السيدة كاننبرغ ما يلي إلى أقوال زوجها:

«كانت رائعة الشكل، وكان لها ساقان بديعتان. .»

لقد رسم خدم، نساءً ورجالاً، صورة جسدية وخلقية للمرأة التي عرفوها مستندين إلى أحقادهم أو ميولهم الشخصية. سوى أن سورة غضب، أو خطأ سيكولوجياً يمكن

أن يحرّف حكماً. وكنا نفضّل أن نعرف رأي الشخصيات الكبرى في العهد النازي في المرأة التي غالباً ما استقبلتهم في قصر برغهوف، وتصدرت مآدبهم. ولكن لا يبدو أن كبار الزعماء النازيين قد أحسوا بما يدعوه الفرنسيون «شكران البطن». وعبثاً راجعنا المذكرات والتعليقات التي خلّفوها فلم نعثر إلا على عبارة واحدة واضحة بقلم شبيرز تكشف عنها. فقد كتب يقول: «إن إيفا براون ستخيّب أمل جميع الذين سيدوّنون التاريخ »

ويضيف المؤرخ الانكليزي تريفور هوبر الذي يذكر ذلك قائلًا: «لم يكن لها أي صفة من الصفات الباهرة التي تتحلى بها محظية طاغية. فلم تكن كتيودورا، أو كمدام دو بومبادور، أو كلولا مونتيز. وهتلر نفسه لم يكن طاغية عادياً.

«. كان يجد بقربها تلك الراحة التي لا يسعه أن يجدها في مكان آخر، وهي من جهتها كانت تلطف من خشونة حياته المشوشة المضطربة، وذلك بتوفير العزلة الحلوة له وعدم محاولتها التأثير عليه في الميدان الخارجي والسياسي. ولما كانت ماهرة في التزلج وتسلّق الجبال، ولوعاً بالرقص، وذات اطلاع واسع في هذا «البلاط» الجاهل، تناقش بلذة الكتب واللوحات الفنية، فقد كانت منسجمة تماماً مع عالم برشتسغادن «الفني» المشابه لجبال الألب، حيث كانت تنزوي معظم الوقت. . »

وقد أجمل اريك كمبكا، سائق سيارة هتلر ذلك بقوله:
«كانت أتعس امرأة في ألمانيا. فقد سلخت الشطر الأكبر من حياتها تنتظر هتلر.»

وكان يجمل به أن يضيف: لم تمثّل أي دور في حياته. كان يأتي إليها طلباً للراحة، ناسياً انها امرأة. يحيطها بالعناية الرقيقة، ويبدي لها العاطفة كما لو كانت حيواناً. أوَ لم يقل فيما بعد في ملجأ قصر المستشارية: «ان أخلص الجميع إليّ هما إيفا وبلوندي وحدهما!»

ولقد جمع هكذا بين تلك التي أمست زوجته ـ ولم يكن قد رآها بعد، وبين كلبته الالزاسية التي كانت تتبعه أنّى ذهب. وعلى سبيل المكافأة القصوى على كل هذا الاخلاص ناولها أنبوبة السم التي نقلتها إلى العالم الآخر، فكان عمله هذا آخر بادرة من بوادر الأنانية الجبارة.

وقد تقبّلت هي، بعينين مغرورقتين بالدمع، هذه الهدية بالشكران الجزيل.

* * *

وبعد الحرب حدث ما زيّف الرأي العام الذي لم يكن يعطف كثيراً على إيفا براون. فقد نشرت مجلة (Wechenend) الأسبوعية التي تصدر في ميونيخ «مذكرات إيفا براون». وأكدت ادارة الصحيفة أن هذه المذكرات سلّمها إياها أحد السينمائيين ويدعى لويس ترنكر، المتخصص بتصوير أفلام

الجبال، وقد عهدت بها إليه إيفا نفسها السنة ١٩٤٤ عندما بدأت المخاوف على مستقبل النظام تساور النفوس. وبيعت هـذه السلسلة من المقـالات إلى عـدد كبـير من الصحف الأجنبية.

وارتفع لهذه المناسبة عدد النسخ المطبوعة من هذه المجلة من ١٠٠ ألف إلى ٣٠٠ ألف أسبوعياً. وبما أنه لم يكن هناك كميات كافية من الورق لزيادة كمية الطبع، فقد أعيد بيع أغلب النسخ في السوق السوداء.

كان لويس ترنكر شخصية غريبة. ففي أثناء الحرب اختار الجنسية الألمانية، وفي السنة ١٩٤٤ عاد إلى جنسيته الايطالية الأصلية، وعهد إلى الكاتب العدل في بولزانو بالمظروف الذي يحتوي ـ حسب تأكيده ـ على أسرار مخدع السيـدة هتلر. وهناك فُضّ المظروف بحضور شاهدين هما آلـويس بركـاتا والآنسة كارلوتا بتش دو اوسكار. وكان هناك ثلاثة مظاريف بعضها داخل بعض وجميعها مختومة بالشمع الأحمر، وُجـد بداخلها ٨٩ ورقة مزدوجة مضروبة على الآلة الكاتبة.

في هذه المذكرات تروي إيفا براون تاريخ حياتها بأسلوب صبياني. نقرأ فيها مثلاً:

«لاحظت أنه نظر إليّ عندما جاء آخر مرة. وكنت ارتدي يومئذ كنزة من الصوف الأزرق تلتصق بجسمي. ولكي أكون صادقة أقول انني تقوست قليلاً لدى دخوله. ولكن أي فتاة لا تفعل ذلك لو كانت مكاني؟»

والقصة كلها تجري على هذا النمط. إلا أن هذا الأسلوب الذي هو أسلوب امرأة طفلة لا يتلاءم بتاتاً والصورة التي يتفق عليها الجميع وهي: إيفا براون الرياضية، القوية، النشيطة المرحة. وفيها نجد حل لغز هتلر على الصعيد الجنسي بالرجوع إلى شذوذ لويس السادس عشر الطبيعي، وإلى داء السفلس الذي أصيب به في فيينا. وفيها نشهد افراط الزعماء النازيين في القصف واللهو وحب الملذات، وعلاقة لإيفا براون بشاب قضى عليه هتلر بنفسه، الخ.

كل ذلك كان مرفقاً برسائل غرامية بخط هتلر. وفيما يلي نثبت أحداها:

«**٣١ تشرين الأول ١٩٤١**

«أيتها الفتاة الصغيرة،

«ان سحر تحفّظك واستسلامك النهائي أسرني من جديد، واني لأحس بضرورة قول ذلك لك. فأنت أفضل صديق، ولم يسبق لأحد أن منحني من المسرات ما منحتني. وليس ثمة في العالم ما يستطيع أن يحرّك فيَّ شهوة التملك المتأججة مثلك.»

ان مجرد قراءة هذه الرسالة يكفي للشك بصحة هذه الوثيقة. بيد أن هناك شهادتين تحطمان «تركيبة» ترنكر هما: شهادة ايلزه، شقيقة إيفا، التي صرحت بأن كل ذلك ما هو إلا مجرد ابتداع وابتكار صرف، وشهادة السيدة غلبرت، خادمة هتلر الخاصة، التي أكدت أن العاشقين تعارفا منذ

١٩٣٣ وليس منذ ١٩٣٧ كما تؤكد الوثائق «القيّمة».

وقد اكتُشف فيما بعد أن المواقف الوارد ذكرها مستمدة في أكثرها من مذكرات الكونتيس لاريش فالرسي، وصيفة الملكة اليزابت النمساوية، التي روت تحت عنوان «ماضيّ» قصة الارشيدوق رودولف وعشيقته ماري فتسيرا، بطلي مأساة مايرلنغ الشهيرة. فإيفا في مذكراتها ترتدي الأثواب الداخلية نفسها التي كانت ترتديها اليزابت. والثوب الذي تقول انها لبسته يوم ذهبت لزيارة هتلر للمرة الأولى هو نسخة طبق الأصل عن الثوب الذي ارتدته ماري فتسيرا عندما تعرّفت إلى رودولف.

وفي هذه المذكرات الزائفة اشارة إلى امرأة انتحرت في قصر برغهوف حباً بهتلر. فإذا بهم يغطون رأسها بقميصها، ويلفونها بمعطفها المصنوع من الفرو ليخرجوها من المنزل، كما حدث تماماً في مأساة مايرلنغ.

وعلى الرغم من هذه الأدلة الدامغة بقي هناك أناس يحكمون على إيفا براون من خلال هذه المذكرات المزعومة. فهي على ذلك لا تترك إلا ذكرى امرأة شبقة لم تكلف بهتلر إلا عن مصلحة. لقد عرفت إيفا البؤس في حياة العزلة التي كانت تحياها، وجُرَّت إلى موت مفجع ارتضته دون ما تردد، ومع ذلك لم تنجُ بعد وفاتها من التجني والافتراء كأن القدر أراد أن يعاقبها على حبها وحشاً مدمِّراً.

عندما اعتزمت وضع هذا الكتاب عن إيفا براون لم أقصد مطلقاً إلى ردّ اعتبارها إليها. فإني أدع هذا العمل للمؤرخين ذوي الضمائر الحية. إلا أن ما أثار اهتمامي هو مصيرها كامرأة.

(المعرّب: نُشر هذا الكتاب السنة ١٩٥٤).

الفصل الثاني

اللقاء الأول



ميونيخ، في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٣ السحب السوداء منتشرة فوق المدينة، مثقلة بالأمطار، تبدو كأنها تلامس أبراج الأجراس، تنثر الأرصفة والشوارع بنقاط ماء كبيرة متجمدة، لا تلبث أن تزيلها الريح الشمالية التي تتغلغل في الطرقات فتصفق مصاريع النوافذ، وتحرّك الستائر، وتجعل الملابس تلتصق بالأجساد التي تتقوّس وتمشي بمحاذاة الجدران بغية الفرار من العاصفة التي تنذر بالهبوب.

هذا هو اليوم الذي اختاره الجنرال لودندورف، وصديقه أدولف هتلر، ويوليوس شترايشر الذي جاء خصيصاً من نورنبرغ، واولريك غراف، والكابتن غورينغ، واصدقاؤهما من أعضاء الحزب الاشتراكي الوطني (النازي) ليقوموا بانقلابهم. انهم يريدون وضع حد لسياسة التضخم التي يتبعها «خونة تشرين الثاني»، ومحاربة شتريزمان، وانشاء دولة ألمانية جديدة بعد خمس سنوات من الهزيمة المخجلة. وكان قد صدر عشية اليوم السابق الأمر بحل الحزب النازي لأن

الديمقراطية الألمانية لم تشأ أن تدع حفنة من المشاغبين تفرض عليها قانونها.

وعلى الرغم من المحاولات التي جرت لمحاصرة الثكنات العسكرية، والاعلانات الملصقة على الجدران، وبقاء الضباط في حجراتهم يحرسهم اعضاء الحزب، وانتشار قوات الشرطة المسلحّة في مختلف أرجاء المدينة، وتجمّعات أفراد وحدات الرايش الحربية من منطقة أوبرلاند، أو أفراد حرس الهجوم ذوي الملامح القاسية الجريئة، واصل سكان ميونيخ تعاطي أعمالهم متأثرين فحسب ببؤسهم وبخبزهم الذي ينبغي أن يدفعوا ثمنه حزماً من الأوراق النقدية من فئة الملايين.

وككل يوم فتحت المدارس أبوابها لطائفة من الأولاد، وقد شحبت ملامحهم من جراء الحرمان، وهزلت أجسادهم، يحاول معلموهم أن يحملوهم على نسيان آلام المعدة وأقراص الحلوى التي يحلمون بها.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف فُتحت أبواب مدرسة تيرشتراسة الابتدائية أمام جماعة من الفتيات خرجن ضاحكات وانتشرن في الطرقات المجاورة دافعات في طريقهن رجال الشرطة المسلحين بالبنادق الذين كانوا يبعدونهن برقة ولطف ووجوههم مشرقة مبتسمة.

ـ إيفا! إيفا!

عبثاً نادت غريتي، غريتي العاقلة، الأخت الكبرى، فقد

اندفعت الصغيرة إيفا الشقراء الطائشة من بين رجليّ أحد الجنود واختفت في إحدى الطرقات، وراحت تعدو نحو ضفاف نهر ايزار. ولكن بعد قليل وعندما تصل هذه الصغيرة متأخرة عن موعد الغداء سيحدجها والدها الهر براون، المعلم القاسي، بنظرة حادة ويحرمها من الحلوى أو الفاكهة. وليس هذا العقاب صارماً ما دام ليس هناك في البيت ما يكفي للأكل. ولكن لا يسع أياً كان أن يتبجح بأنه شهد ثورة في التاسعة من عمره.

ـ هه! يا آنسة! ممنوع المرور.

ان قوات الشرطة مكدسة على شاطىء نهر ايزار، وعلى الضفة المقابلة ينتظر هتلر ولودندورف ورجالهما ساعة التحرك. ولم يكن هناك أحد على الجسر. وبحركة خفيفة تفلت إيفا من الرجل الذي أراد أن يضع يده على كتفها، وتندفع داخل إحدى البنايات، وتستند إلى الجدار لتستعيد أنفاسها. وعليها أن تكون حذرة فطنة إذا شاءت أن ترى كل شيء.

إن الأرض الحرام هي جسر لودفيكس الذي لا يجرؤ أحد من الخصوم على عبوره. وعلى الضفة الأخرى يصدر هتلر الأمر بإطلاق النار واطلاق سراح الرهائن. فلم تعد هذه الثورة سوى مظاهرة. ويسير الموكب يتبعه عدد من السيارات. الدكتور شولتز وراء مقود إحدى سيارات الاسعاف. وهناك رشاش ثقيل فوق سيارة شحن، وأما الذخيرة فبقيت في الصندوق.

وتتعالى الضوضاء من الشارع، فتحبس إيفا أنفاسها، وتتردد هنيهة، ثم تقفز فجأة، وبحركة آلية تزيح خصلات شعرها الأشقر عن وجهها وتتسلل بين بعض الصناديق، وتبصر أحد قضبان السور الحديدي محطمًا فتعدو مسرعة وتعبر الفناء المقفر والممر الطويل المظلم، وتتوقف أمام بوابة كبيرة. ومن خلال نافذة بمستوى بلاط الشارع ترى ظلال سيقان رجال الشرطة، اولئك الذين يضيعون وقتهم بالنظر إلى كل شيء والاصغاء إلى كل ما يقال. وتتعالى الصيحات والوشوشات والصراخ والضجيج. ويطرق سمعها صليل الأسلحة فتتنبه وتضع يدها على المزلاج وتتسارع دقات قلبها نتيجة الاضطراب والتأثر، لا التعب والعياء. فبعد دقيقة ستشهد الثورة، وتبصر ذلك الذي تغطي رسومه جدران المدينة، محرّك الحزب النازي، ادولف هتلر الذي يدعوه السيد براون القاسي «هذا المهيّج النمساوي الفقير». واليوم ستعاقَب إيفا عقاباً صارماً لتأخرها ولكنها لا تبالي.

ـ يجب أن أراه! أقسم انني سأراه!

قالت ذلك كما لو ان هذا الوعد الصبياني يمكن أن يضاعف الفرص أمامها.

وبحركة سريعة تجذب الباب إليها وتتسلل إلى الرصيف، فإذا بها ترى فوق رؤوس الشرطة الذين لم يلمحوها الأعلام ذات الصليب المعقوف، ورايات اوبرلاند ترفرف. وتلمح بقربها نصباً، فتعلوه. ان شعرها منفوش، ووجنتيها محمرّتان

من فرط الحماسة. وتتمتم:

- إني أرى، اني أرى!

وتسدّ فصيلة من الشرطة مخرج الجسر فوق نهر ايـزار، ويندفع أمـام الشرطيين رجل ممتلىء الجسم هو الكـابتن غورينغ، بطل الطيران، ويصيح:

- إذا أطلقتم طلقة واحدة أجهزنا على الرهائن جميعاً.

ويتردد رجال الشرطة، فيشير غورينغ إلى رفاقه، ثم يندفع بثقل جثته نحو هذا الجدار المتداعي شاهراً مسدسه بيده. فيحذو رفاقه حذوه. وتسير خلف القادة الاشتراكيين الوطنيين سيـارات الشحن. ويفرّ بعض العسكـريين وينضمـون إلى النطاق الثاني من القوات الحكومية التي تمركزت أبعد قليلاً على ضفة النهر. وتراهم إيفا يمرون أمامها شاردي البصر، شاحبي الملامح. انهم خائفون!

أما اولئك الذين لم يستطيعوا الهرب فقد أهينوا وعوملوا بقسوة، وبصق المتظاهرون في وجوههم، فإذا ما تمكنوا من الفرار لحقوا بهم بضع خطوات محاولين تـزويدهم بـرفسة أخيرة.

ان الـطريق الآن حرة، وقـد أظهر الثـائـرون تفـوقهم وشجـاعتهم. فأهملوا مـلاحقة أعـدائهم المنهزمـين وواصلوا سيرهم بخطى منتظمة. وهكذا رأته إيفا. ان ادولف هتلر يسير دون أن ينظر إلى أحد، تسطع عيناه بحلم داخلي، وهو

قصير القامة بجانب لودندورف الفارع الطول، وغورينغ الضخم الجثة.

وعندما أيقن الفضوليون أن الخطر زال غادروا بيوتهم ونزلوا إلى الأرصفة وانضموا إلى الزاحفين المظفرين.

وتعالت الهتافات:

- هايل هتلر! هايل هتلر!

إن أكثرية الرجال من المحاربين القدماء، وقد حملهم على اتخاذ هذا القرار رؤيتهم الصليب الحديدي يلمع على سترته الطويلة (ريدنغوت) البالية، وسمعة غورينغ، بطل الطيران. وتنخرط إيفا بينهم، وتهتف معهم بحماسة:

- هايل هتلر! هايل هتلر!

ويضع رجل أشيب، كئيب الملامح، يده على رأسها مردداً بكل اقتناع:

- هوذا الجيل الذي سيردّ إلينا شرفنا واعتبارنا!

فتعتدل إيفا باعتزاز، إلا أن ابتسامة الرجل تقلقها نوعاً، فتحاول التملّص لتلتحق بطليعة الموكب، فتفصلها سيارات النقل عن زعماء الحزب. فتقنع بالقفز وراء سيارة الاسعاف حيث يجلس الدكتور شولتز يوجه إليها الابتسامات. ومن الجلبة المتعالية وحدها تعلم أن سدّ نهر ايزار قد تم كنسه. ويطرق سمعها نشيد «ألمانيا فوق الجميع» ولحن «المارش» الجديد الذي وضعه ديتريش ايكارت للاشتراكيين الوطنيين «استيقظ، أيها الألماني»!

ويصل الموكب إلى ماريانبلاتس، ويمرّ من أمام دار البلدية، فتحييه الجماهير الغفيرة على طول الطريق. ان إيفا لفي طرب وتهلّل، فهذه الهتافات موجهة إليها. إليها وإلى أدولف هتلر. وتنتصب قامتها، وتبرق عيناها. ان هذا اليوم لهو أجمل أيام حياتها.

ويسلك الموكب فينشتراسه، فتتمكن إيفا مع بعض المتظاهرين من التسلل إلى أمام سيارات النقل بحيث لا يعود يفصل بينها وبين هتلر إلا صفان من الشخصيات. ويسلك المتآمرون شارع بيروساشتراسه الصغير فيحدث تدافع، وتزل بإيفا القدم، فتتعلق بريدنغوت رجل كان بقربها، ما لبث أن صاح بها: «ألا انصرفي»، فيتدخل أحد المتظاهرين قائلاً:

ـ دعها وشأنها! ان الدفاع عن الآراء لا يتعرّف على الأعمار. أنا أعرفها. فهي ابنة المعلم براون. تريثي! انك تودين رؤية ما يجري، أليس كذلك؟

وقبل أن تستطيع الردّ حملها إلى ما فوق رأسه ثم أجلسها على كتفيه. فأجالت بصرها حواليها جاحظة العينين.

ويندفع الحشد الآن في ريزندنسشتراسه، فتعلن إيفا:

ـ إني أرى قصر الحكومة، وساحة اوديون! إنها تعجّ بالجنود شاكي السلاح.

فيجيبها حاملها:

ـ ولكنهم سيبتعدون كالباقين.

ـ وهناك شاحنة رمادية فيها شرطيون ومدفع صغير.

فيردد الآخر:

ـ إنها سيارة مجهزة برشاش! يا للشيطان!

وما كاد يتلفظ بهـذه الكلمات حتى دوّى طلق نـاري. ورأت إيفا ما جرى. فقد تقدّم أحد رفاق هتلر وانتزع بندقية أحد رجال الشـرطة. وأطلق أحـدهم النار، فسقط أحـد المتظاهرين.

وفي المؤخرة بدأت الجمـاهير تتـردد، وتوقفت الأنـاشيد فجأة. ولكن ما تزال أصداء نشيد «استيقظ، أيها الألماني» تُسمع من بيروساشتراسـه. وما هي إلا بعض ثـانية حتى سُمعت طلقة نارية ثانية، وارتفعت صيحة:

ـ لقد اطلق رجال الشرطة النار!

وتشتت الجمع، فأُنزلت إيفا عن كتفيّ حاملها الذي أطلق ساقيه للريـح. وحذا البـاقون حـذوه. وسلكوا الـطرقات المجاورة، واختفوا داخل البنايات.

ولم يعد يفصل بين إيفا وبين صف رجال الشـرطة إلا جماعة أنصار هتلر الذين شهروا مسدساتهم وراحوا يطلقون النيران. وأُطلقت نيران الرشاش. وشعرت إيفا بالرغبة في البكاء، واختلج منخراها. انها تحب هذه الرائحة ـ رائحة البـارود. وتذكـرت المرة الأولى التي استنشقت فيهـا هـذه الرائحة، وذلك عندما صرع جدها جرذاً ضخمًا بـرصاص

مسدسه العسكري. وتذكرت الجرذ كذلك بشعره الرمادي الملطخ بالدم.

وتتراجع وتختبىء في مكان منعزل، غير عالمة بالخطر الذي يتهددها، إلا أن رعباً غريزياً يتملكها. ففي طرف الشارع، وتحت سحب البارود المشتعل، وعلى البلاط المبلل يقع نظرها على رجال ممددين، لا حراك بهم، كالجرذ الميت، وقد تلطخت ملابسهم الرمادية ببقع الدم.

ويواصل الباقون ـ هتلر، وغورينغ، ولودندورف، وشنوبر ـ رشتر، الذي يعرفه جميع من في ميونيخ، واولريك غراف، سيرهم، فتقوّي شجاعتهم من عزيمة المترددين. ولكن في الطرف الآخر من الشارع يتردد الاشتراكيون الوطنيون. فهل يتراجع محاربون قدماء أمام أسلحة الجيش الألماني؟ وتفتح إيفا عينيها كبيرتين، ويتغلب فضولها على خوفها، وتضع قبضة يدها على فمها لتخنق صياحها. فهي تعلم أن ما تراه اليوم لن تنساه أبداً.

ويستمر الرجال في إطلاق النار، وفي الوقوع. ان كل شيء يجري كما لو كان في الحلم. ويقفز أولريك غراف أمام هتلر ليحميه بجسده قائلاً:

ـ لا تطلقوا النار! إن صاحب السعادة لودندورف بيننا!

إلا أن رصاصة تصيبه فيقع أرضاً. فيخطو هتلر فوقه دون أن ينظر إليه، مواصلاً سيره، يتبعه أصدقاؤه مرددين بلا

انقطاع:

ـ هيا بنا! هيا بنا!

ولعلع الرصاص من جديد، ولم يبقَ أمام هيئة أركان حرب الحزب النازي سوى بضعة أمتار من خط الشرطيين الذين ما فتئوا يطلقون النار بلا هوادة. ويترنح فجأة شنوبر ـ رشتر الذي يسير بجانب هتلر فيستند بجثته الضخمة إلى كتف رفيقه، فيتخاذل هذا تحت وطأة الثقل، ويسقطان معاً.

وتقف إيفا على رؤوس أصابعها لترى ما إذا كان هتلر قد أصيب، وهل سينهض، وتشبّك يديها على صدرها مبتهلة:

ـ لا، لا ربّاه، إبقه حياً!

وكما لو ان السماء استجابت لدعائها استوى هتلر واقفاً وأجال طرفه حواليه زائغ النظر، ثم تقدّم بضع خطوات مترنحاً دون أن يتنبه إلى لعلعة الرصاص حوله.

فتئن إيفا:

ـ لن ينجو من الموت.

وتتأهب لانقاذه. ولكن سواها رأى الخطر المحدق بزعيم الحزب. فتحركت سيارة الدكتور شولتز صوبه، وكانت واقفة إلى الرصيف، فابتهج المتظاهرون المختبئون خلفها. وتوقفت دفعة واحدة بين هتلر ورجال الشرطة، ودفع الطبيب هتلر إلى داخلها دفعاً، ثم اختفت في الشارع.

واستمر اطلاق النار. وفي طرف الشارع راح المتظاهرون

الذين عاد شملهم فالتأم ينشدون «ألمانيا فوق الجميع». غير أن الثورة في نظر إيفا قد انتهت. لقد هُزم هتلر ولكنه بقي في قيد الحياة.

ـ شكراً يا إلهي!

وفجأة يلوح أمام ناظريها وجه الهر براون القاسي. فهي ستتأخر عن موعد الغداء، وتتخيّل والدها واقفاً ينتظرها لدى باب قاعة الطعام داساً يده في جيب سترته ليتناول ساعته الذهبية الكبيرة، وهو يجيب على ايضاحاتها وتفاسيرها بصوت جاف:

ـ الثورة ليست عذراً. فأنا لما كنت في مثل سنك.

ينبغي لها أن تعود فوراً. وعلى أي حال، فطلقات النار أمست أقلّ من ذي قبل. وهناك طلقات متفرقة في نقاط أخرى من المدينة. وتعدو شعثة الشعر حتى تصل إلى المنزل، فتتسلق درجات السلّم أربعاً أربعاً، وتدفع الباب وتسند ظهرها إلى المزلاج وهي تلهث من شدة الاعياء. انهم جميعاً هنا ـ أربعتهم يحدّقون بها بدهشة. وتلتقط أنفاسها وتقول باعتزاز وفخر:

ـ لقد شهدت الثورة!

ويرفع والدها يده اليمنى ويصفعها على وجهها صفعتين شديدتين، فتحس بأذنيها تطنان، وبأنها ترغب في البكاء. كان يمكن أن تبكي بالأمس، أما اليوم. ما هما الصفعتان

بالنسبة إلى اطلاق الرصاص من حولها، ورؤية الموتى والجرحى. وتحبس دموعها وتردد بصوت متزن:

ـ لقد شهدت الثورة!

فيهزّ الهر براون كتفيه، ثم يتناول قبعته ويضعها على رأسه بغضب، ويغادر المنزل مغلقاً الباب بعنف، قائلاً:

ـ سنسوي كل هذا الليلة!

لقد ذهب ولم يبقَ إلا والدتها وشقيقتاها ايلزه وغريتي. فلتطلق لدمعها العنان. وترتمي بين ذراعي والدتها وهي تجهش بالبكاء. فتهدىء السيدة براون من روعها، وتؤاسيها مداعبة بيدها خصلات شعرها الاشقر الأشعث، قائلة:

ـ لا تبكي، يا بنيتي الصغيرة المسكينة، كل شيء ينتظم. لا تقلقي.

وترفع بصرها نحو الشقيقتين اللتين لم تتحركا من مكانهما، وتضيف قائلة كما لو كانت تبرر ضعفها:

ـ إنها عصبية المزاج إلى درجة فائقة.

وتقوم الصغيرة بهدوء ولطف إلى قاعة الطعام، وتصبّ لها الحساء الساخن.

فتشخر مرة أو مرتين، وتمسح عينيها، وما تلبث أن تبتسم وتروي لشقيقتيها كل ما رأته:

ـ وكان هناك هتلر، ولودندورف، والكابتن غورينغ البدين، والجنود يطلقون عليهم الرصاص، دون أن يحولوا بينهم وبين التقدم.

ـ وأنت؟

ـ أنا، كنت وراءهم تماماً. وقد أشار إليّ هتلر بالابتعاد.

ـ ليس هذا صحيحاً!

ـ أجل، انه الواقع! حتى أنه قال لي: «هيا، ايتها الصغيرة، اختبئي، فالثورات لم تخلق للفتيات الصغيرات. . »

وجلست السيدة براون معتمدة ذقنها بيدها، تتساءل عن سلوك ابنتها الصغرى الغريب هذا، وهي تصغي إلى هذه الثرثرة دون أن تسمعها أو تعيها. ولم تحفظ منها إلا العبارة الأخيرة، فرددت:

ـ ان هتلر لعلى حق، فالثورات لم تخلق للفتيات الصغيرات!



هكذا جرت أول مقابلة بين ادولف هتلر وايفا براون في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٣ وقد أتيح لإيفا مشاهدة معبود صباها في مناسبات عديدة قبل أن تصبح عشيقته. إلا أن سنوات عشراً تنقضي قبل أن يلحظ سيد الرايش الثالث العتيد، وفاتح أوروبا الذي زجّ العالم بأسره في أتون الحرب وألبسه أثواب الحداد، شعرها الأشعث، وعينيها الضاحكتين، وثغرها النهم الممتلىء شهوة، وقامتها المديدة الرشيقة. تلك

المرأة التي وقفت حياتها على حبه وعبادته كإله، وقدّمت إليه في النهاية أثمن ما لديها، وأغلى شيء بعد هذه العبادة والتعصب في الحب: وجودها!

ولكن إيفا، وهي بعد فتاة صغيرة لعوب، ضاحكة، سرعان ما نسيت حوادث السنة ١٩٢٣ بعد أن كانت مصدر فخر واعتزاز لها أمام زميلاتها في المدرسة. فقد زُجَّ هتلر ورفاقه في قلعة لاندسبرغ، وعاد لودندورف إلى برلين، ولم يبقَ أمام الفتاة إلا أن تشبّ بهدوء وسلام تحت حماية الهر براون وزوجته ورعايتهما الشديدة. وقد أتاح حنان الأم للفتيات الثلاث أن يجتزن السنوات الصعبة دون أن يفطنّ إلى شيء.

وإيفا الرقيقة، اللعوب، الشهوانية، تقضي حياتها في منجى من الآلام والقلق، والضيق المحيق بها. ولدت للحب، فإذا مشاكلها كلها مشاكل عاطفية. وكان محور قلقها واضطرابها الحب، والغيرة، والحزن، والغضب، وملذات الجسد. فلو ان هتلر كان شبقاً، ولو ان حاشيته كانت تعرف قيمة العظمة والقوة حقيقة لأمست إيفا كميسالين، أو هيلانة، أو كليوباترة. ولكنها وسط هؤلاء البورجوازيين الصغار، الضيّقين، الطموحين، لم تكن إلا ربة منزل لم ترتدِ وقائعها من الأهمية أكثر مما ترتديه وقائع أي زوجة زانية.



اثنتا عشرة سنة من الهدوء والسعادة الصفراء في ميونيخ أو في قصر برغهوف الذي لم تغادره مطلقاً، كانت مقدمة لاثنتي عشرة سنة فاغنرية قاسية ومضطربة آلت إلى أقذر موت، وأفظع دمار.

ولقد تقرر مصير إيفا براون في أقلّ من ثلاثماية ساعة تحت اثني عشر متراً من الاسمنت المسلح قبل أن يتفحّم جسدها الرائع الشبق وسط خرائب برلين المحتلة، والقصف الجوي.

ففي ملجأ المستشارية اكتشفت إيفا الرقيقة، وهي بعد لم تبلغ الخامسة والثلاثين، ووسط الدلائل المنبئة بنهايتها القريبة، انها اجتازت ضاحكة اشأم عهد في تاريخ ألمانيا، وانها لم تعتبر الرجال الذين أوقدوا النيران في العالم وقضوا على الملايين من أمثالهم إلا رفاقاً في لعبة دنيوية.

وليس ثمة ما يفضح لامبالاتها خلال سني الحرب كالنادرة التي يرويها ارنست فون سالومون في مؤلفه «مجموع الأسئلة».

كان سالومون كاتب سيناريو يعمل في ميونيخ، دعي ذات مرة ورفيقته إيله، والطيار فولف ردلتش إلى سهرة يقيمها أبطال الطيران الألماني في «دار الفنان». ولم يرق جو الحفلة لسالومون فقرر الذهاب إلى بار الدار لطلب بعض المشروبات. ويروي أنه لما صعد إلى الطبقة العليا ألفى البار مقفلاً والمكان مظلماً. واليك كلامه: «وهممت بالرجوع إلى

القاعة الكبرى فإذا برجل يخرج من البار ويسألني:

ـ هل تريد دخول البار؟

فأوضحت له رغبتي بطريقة مؤثرة، فقال:

ـ أجل، وأنا كذلك أودّ أن أحتسي شراباً. فاصعد، فهناك سيدة تنتظر هي الأخرى. اني أعرف الساقي (البارمان) وسأحاول أن أحصل منه على بعض الشراب.

فشكرته، واستأذنته باصطحاب سيدة أخرى، ورجل يحمل صليب الفرسان. فكان جوابه:

ـ لا بأس، ولكن لا تذكر شيئاً أمام الباقين، وإلا هرع الجميع إلى هنا!

وخرجت وإيله وردلتش وتوجهنا إلى البار، وكانت هناك امرأة تنتظر في الظلمة، فرويت لها حديثي مع الرجل. فأكدت لي أنه إذا كان هنالك مَن يستطيع اكتشاف الخمور فهو «البروفسور».

وما عتّم هذا ان عاد قائلاً انّ الساقي أبى الاصغاء إليه، مضيفاً إلى ذلك قوله:

ـ وفي هذه الحالة هيا بنا إلى منزلي. فزوجتي معتادة على ذلك، ويمكنكم جميعاً مرافقتي!

وتحمس فولف ردلتش للفكرة واستقللنا سيارة فخمة. وفي قاعة المنزل الفسيحة استطعت أن أتبين أن السيدة على جانب كبير من الجمال، وان «البروفسور» رمادي الشعر، مكتنز.

وتساءلت بيني وبين نفسي تُرى من يكون هذا الرجل صاحب هذه السيارة الفخمة؟ وكان منزلهما وسط حديقة صغيرة. فلما اجتزنا السور تعلقت إيله بذراعي خائفة مذعورة. وفجأة انتصب أمامنا رجلان معهما كلب ضخم الجثة. ولكن السيدة قالت:

ـ حسناً، يمكنكما الانصراف!

وغاب الرجلان في وسط الظلمة. وولجنا عتبة الدار، ولم يضيء «البروفسور» النور إلا بعد أن أغلق الباب بسبب نظام التعتيم. وأصبحنا على عتبة قاعة فسيحة قُسم داخلها بسلّم. ولفتت نظري لوحة فنية للرسام بروغل. واستعرضت القاعة فأبصرت أربع عشرة لوحة من صنع شبتزفغ. وبينا كان «البروفسور» يضيء الأنوار همست في اذن إيله:

ـ أنا أعرف أين نحن. فليس عليك إلا أن تنظري إلى رسوم شبتزفغ. فنحن في منزل هاينريش هوفمان!

ففهمت على الأثر وقالت بصوت خافت:

ـ إذن، هذه السيدة هي إيفا براون!

فسألتها:

ـ ومن هي إيفا براون!

فقالت إيله:

ـ صه، أخبرك فيما بعد!

في هذه الأثناء كان «البروفسور» قد صبّ لنا الكونياك في الكؤوس. وعادت إيفا براون بصحبة سيدة طويلة القامة،

بدينة ترتدي «روب دو شامبر» فحيتنا بصوت مرتفع دون أن تبدو عليها امارات الدهشة.

وجرعنا الخمر، وأبديت اعجابي بالرسوم، فنهض «البروفسور» وراح يتنقل معي من رسم إلى آخر، موضحاً لي خصائص كل واحد منها. ثم سألني إذا كنت أرغب في مشاهدة رسوم الفوهرر ولوحاته المائية. فلم اكتمه رغبتي، وحذا ردلتش حذوي. وبقيت إيله وحدها، فاتجهت شطر إيفا براون، فرجوتها أن تحبس لسانها الخبيث، فأشارت إليّ بألا أزعجها.

كانت لوحات هتلر في حجرة بجانب القاعة الكبرى، عُلّقت على الجدران بلا عناية او نظام. فرحنا نتأملها، بينما ذهب «البروفسور» يحضر بعض الشراب.

كان يبدو من الرسوم أنها بريشة هاوٍ موهوب. فهي من حيث فن تصوير الأشياء حسب رؤية العين، لا غبار عليها. ولكنها كانت تبرز بدقة كل شيء. ولا ريب أن الفنان صانعها لم يسمع بعبارة ماكس ليبرمان: «الرسم هو الحذف والاهمال».

انها رسوم سطحية لبيوت، وحدائق، وزوايا صغيرة جميلة ملونة قليلاً. فقلت بيني وبين نفسي: «في الحقيقة يمكن أن تكون هذه الرسوم من صنع امرأة.»

وعندما عدت لأنضم إلى الباقين تبعني فولف. وكانت المرأتان في قاعة ضيقة، فيها تكأة وطيئة من الجلد الأحمر أمام موقد صغير، لا ريب أن إيله جلست عليها. فلما دخلت طرق سمعي صوت ربة المنزل:

ـ على هذه التكأة يجلس الفوهرر كلما جاء لزيارتنا!

كان واضحاً جلياً أنها تريد أن تقول ان هذه القطعة من الرياش مقدسة، وإنه لا يحق لسواه استعمالها. ولكن إيله قالت وهي تقفز قليلاً:

ـ إني أفهم ذلك. إنها حقاً تكأة جميلة ومريحة.

وتبسمت إيفا براون، وكانت تجلس فوق خزانة صغيرة قديمة ذات أدراج، وراحت تحدثني عن بعض القطع الأثرية الموجودة في القاعة، كاشفة عن ساقين راح فولف يحملق فيهما.

وعاد «البروفسور» من قبو الخمور حاملاً الزجاجات. فلما علم أن فولف آتٍ الساعة من طبرق مباشرة اختفى ليعود ببعض الشمبانيا الفرنسية.

وأقلّتنا سيارة «البروفسور» بعد ذلك إلى المطار، ثم إلى الفندق. ولم نستطع الاستسلام إلى عيبنا المفضل، ألا وهو الاغتياب، بسبب وجود سائق السيارة. سوى أننا ما أن تخطينا عتبة غرفتنا حتى أخذت إيله تتدفق بالكلام. فاضطررت إلى مقاطعتها مراراً لأسألها بإلحاح عما إذا كانت قد

تفوهت ببلاهات، فقالت:

ـ كلا! أرأيت ثوبها؟ افراط في الدقة، ولكن تفصيله عادي بسيط. قماشة من أفخر الأجناس وحلية واحدة. ولكن هل رأيت السوار؟ على أي حال، أعرف الآن ما ينبغي لي أن أجيب عندما يريد أحدهم مماحكتي في الترامواي بسبب شفتيّ الحمراوين. سأقول له: «إحذر، فالفوهرر يحب ذلك!»

ولم تصمت بل واصلت كلامها:

ـ اعتقد أنها قطعة جليد!

بيد أنها كانت تصف هكذا كل النساء اللواتي تحس أنهن يتفوقن عليها.

فقالت:

ـ وأعتقد كذلك أنها ذكية، إلا أنها قالت مرة واحدة قولاً لا يجدر بها قوله: فقد لاحظت أن الشخص الذي استنبط بطاقة المنسوجات مخصصاً ستة أزواج من الجوارب في السنة متزوج ولا شك امرأة تلبس جوارب تنسجها بنفسها.

فقالت: «اذن، فأنت تجدين صعوبة في الحصول على جوارب؟ أما أنا فأستوردها من لشبونة!»

ولم يكن يجدر بها أن تقول ذلك! وماذا بعد؟ آه. سألتها عما إذا كان في الوسع مراجعتها إذا اكتشفت فضيحة ما يمكن الفوهرر أن يسوّيها بإشارة واحدة. ولكن تصور أنها

أجابت: «كلا». اضافت أنها حاولت ذلك غير مرة فكان يثور دائمًا، وانها لا تجد الشجاعة الكافية لتطلب إليه أموراً مماثلة في هذه الظروف الصعبة، قائلة انني كامرأة يجب أن أفهمها.

ووجدت صعوبة قصوى في اقناع إيله بأنه يحسن بها ألا تحاول تجديد الاتصالات بمنزل «البروفسور»، وفي النهاية اقتنعت. .»



كشفت إيفا براون بعبارات قليلة، خلال هذه المقابلة القصيرة في ميونيخ، للخبير النفساني ارنست فون سالومون، كل أسرار نفسها الساذجة. وان حوادث مماثلة لتلقي ضوءاً ساطعاً على شخصيتها أفضل من التحاليل العميقة، وتتيح سبر غور هذه الشخصية التي يبعث اكتشاف مطامحها السرية على الشفقة والحنان.

هناك ثلاث نقاط في هذه القصة تستحق التحليل. أولاها أنه عندما جلست إيله على التكأة المخصصة للفوهرر أثارت احتجاجاً حياً من قِبل السيدة هوفمان، لا من قِبل إيفا براون التي اكتفت بالابتسام. فقد كان ادولف هتلر معبود الألمان جميعاً، وهم، أسوة بالمؤمنين بمختلف الديانات يُسقطون من حسابهم مشاطرة أحد معبودهم معهم. ولم يكن الاحترام الذي تكنّه له السيدة هوفمان ليتأثر في شيء لمجرد كونها من بطانة هذا الإله الفاغنري. بل على العكس، كان ذلك يقوّي

فيها الشعور بأنها إحدى كاهنات هذه العبادة، ويستحثها على الدفاع عنه ضد كل من يدنسها.

وأمام التدنيس تبتسم إيفا، ولكنها ستمسي في عداد المتعصبين، ومن أولئك الذين سيبلغ بهم ايمانهم حد التضحية بحياتهم. سوى ان إيمانها خاص بها. وديانتها انشقاق، هي كاهنتها، والمؤمنة الوحيدة بها. وهذا الإله الحيّ هي وحدها التي تعرف إلى أي حد هو ضعيف، وانساني، ومتوسط الذكاء، وأعزل. وانها لتجد مبررات جديدة لتعلّقها به بعد وقوفها على نقاط الضعف فيه. ان الإله بحاجة إليها، وهذا هو السبب الرئيسي لاخلاصها. وفي هذه الحالة ما يعنيها من الانتقاد والتدنيس؟ إنها تحيا مع معبودها في عالم لا يحق لأحد دخوله، ولا يستطيع أحد فهمه. ولا يخفى أن للعواطف التي تنكر كل شيء في العالم إلّاها جانباً مضاداً للطبيعة. فتريستان وايزولت، وروميو وجولييت، كانوا مسوخاً. والعاطفة التي لا تتغذى إلا من نفسها تحمل معها جراثيم دمارها.

والنقطة الثانية التي تستحق بعض الاهتمام هي قضية الجوارب الحريرية. فعندما كانت إيفا تبدي رغبتها في الحصول على جوارب كان ملحق في السفارة الألمانية في لشبونة يأتيها بها بعد أن يجتاز اسبانيا الفرنكية وفرنسا المحتلة - والحقيقة أنها لم تكن بحاجة إلى ابداء رغبتها. فالجوارب وسائر ما يمكن أن تشتهيه من السلع والحاجات المفقودة

بالنسبة إلى المواطنين الألمان، نساء ورجالاً، كانت في متناول يدها. وهذا ما كان يقيم سوراً جديداً بينها وبين الشعب الذي لم يفهمها، ولم تحاول هي فهمه، مكتفية بالانطواء على حبّها.

وأما النقطة الثالثة التي يشير إليها ارنست فون سالومون فهي العلاقات الجنسية بين إيفا وهتلر. فتلك مشكلة أخطر من أن نكتفي بشأنها بما قالته إيله: «أعتقد أنها قطعة من الجليد.» لا سيما وارنست فوق سالومون يعلّق على ذلك بقوله انها تصف هكذا جميع النساء اللواتي يتفوقن عليها.

هتلر عاجز، وإيفا قطعة من الجليد، تلك هي الاستنتاجات التي يخلص إليها جميع الذين اهتموا بالعلاقات بين الفوهرر ومستشارته الرزينة. ولكن مما لا شك فيه انه ليس هناك أي شهود عيان على ذلك. وأقرب الناس إليهما كان ولا ريب الدكتور موريل المشؤوم، المسؤول عن انحطاط سيد ألمانيا الطبيعي خلال السنوات الأخيرة، ذلك الانحطاط الذي أتاح لجراثيم الجنون أن تتكاثر في دماغه. يقول الدكتور موريل:

«كانا ينامان في سريرين مستقلين أحدهما عن الآخر. واني أعتقد مع ذلك. .»

ولكن لنحاذر الوثوق بوجهة نظر هذا الدجال الخسيس. فالقضية لا يمكن الجزم بها بهذه السهولة، ولا يمكننا حلها إلا

بعد أن نتعرَّف إلى صاحبي العلاقة عن كثب. وهذا المؤلف الانكليزي تريفور ـ هوبر يحاول أن يرسم لنا لوحة عن هذه العلاقة في دراسة مختصرة، ولكنها مشوقة، من الناحية النفسانية. سوى انه يستخدم لذلك مستندات فيها مجال للحذر والريبة، سنتحدث عنها فيما بعد.

يقول تريفور ـ هوبر ان إيفا كانت جميلة أكثر منها حسناء ـ مخالفاً بذلك قول ارنست فون سالومون ـ ذات بشرة ناعمة، خداها بارزان قليلاً، لا يعيبانها في شيء. وسرعان ما سيطرت على هتلر وذلك بتوفيرها له الهدوء الذي كان ينشده عبثاً في حياته السياسية، وتودّه بحرارة روحه البورجوازية. وخلف سورات غضبه العاطفية، ومطامحه التي لا تُحدّ، ووثوقه العظيم بنفسه، لم يكن له أي ميل إلى الشبق وعبِّ الملذات، بل كانت له أذواق مبتذلة، وطرق تفكير تقليدية.

لم يسمح هتلر لإيفا براون بالمجيء إلى برلين إلا خلال السنتين الأخيرتين من حياته. ولم يكن ليعير أي اهتمام للممثلات الصاخبات اللواتي كان غوبلز يستقدمهن إلى قصر المستشارية من أجل الدعاوة. ويبدو بوجه عام أن هتلر كان يخاف النساء، ويخشى تدخّلهن في الشؤون العامة، ويهاب «سياسة التنورة» مع العلم ان سياسة البلاط المطلق السلطان لا تختلف عن ذلك في شيء.

إلا أنه لم يكن ليخشى إيفا براون في هذا الصدد. فقد كانت تكرس عنايتها للفترات التي تتخلل الحياة العامة، فتتصدّر حفلات الشاي، وتقصي رجال السياسة خلال ساعات الراحة القليلة. وكان الجميع يحمدون لها تواضعها. وبالرغم من كل المغريات والفرص التي سنحت لها لم تغتنم أي سانحة للافادة الشخصية. وبالرغم من كرهها الشديد لبورمان لم تحاول قط أن تستعدي هتلر عليه. وكان هتلر نفسه يعنى عناية فائقة بها، وبصحتها، وبتقاليدها، وبعاداتها، وبطمأنينتها. فلم يكن يسمح لها بركوب الطائرة، أو بركوب سيارة تزيد سرعتها على ستين كيلومتراً في الساعة.

تذوّق هتلر في علاقاتها ما كان يجده مثالياً. وقد وصف ذلك في وصيته بقوله: «عدة سنوات من الصداقة الحقيقية.»



لم يكن لايفا وضع محدد طوال اثني عشر عاماً أو يزيد ـ فلم تكن زوجة، ولا عشيقة معترفاً بها، الأمر الذي أنمى في نفسها أعراض مركّب نقص تظهر تحت أشكال مختلفة من الرفعة والتكلف. وكانت إذا غاب عنها هتلر، أو إذا مرّ عليها زمن لم تره خلاله، تتأثر جداً أو تهدد بالانتحار.

ولا ندحة عن التساؤل لماذا تركها هتلر في هذا المأزق الحرج المتقلقل وقتاً طويلاً مع انه كان يحبها؟

فإذا كانت هذه العلاقات من النوع الافلاطوني فلا فرق في وضع ايفا لا كزوجة ولا كعشيقة. وان هذه العلاقات لهي أنسب ما تكون إلى المسيح الجرماني. وإذا كان صحّ هذا فإن الزواج الذي عقد في اللحظة الأخيرة لا يرتدي إلا طابعاً رمزياً بحتاً. وقد حرصت إيفا ايضاً على ألا تفوتها هذه الخاتمة. وعندما اقتربت المعركة من برلين أبعدها هتلر إلى ميونيخ، ولكنها لم تقم فيها. ففي ١٥ نيسان، وفي حين كانت العاصمة تتأهب للحصار، هبطت قصر المستشارية بغتة ودون سابق انذار. فأمرها الفوهرر بالعودة فرفضت الاذعان. فلقد جاءت للاحتفال بعرسها وبمأتمها معاً.



إن هذه الدراسة شيقة، تثير الاهتمام لأنها محصول تحقيق طويل أجري في ألمانيا نفسها. فالتسهيلات التي منحتها لتريفور ـ هوبر سلطات الاحتلال الحليف اتاحت له أن يحصل على شهادات أناس كانوا يتصلون اتصالاً وثيقاً بحاشية هتلر وبطانته. ففهم سيكولوجيته، واستخلص بعض الاستنتاجات. ولكن عمله من الناحية الزمنية قريب جداً من الأحداث التي يصفها، بحيث أنه لم يستطع القيام به بالتدقيق التام الذي يقتضيه كونه مؤرخاً. فلقد أخطأ في ما يتعلق بإيفا، كما أخطأ فيما يتعلق بعلاقات هتلر وإيفا عندما قال: «فرسائلها ومذكراتها تدلان على نضج سيكولوجي وعقلي غير

كافٍ، وعلى روح فتاة صغيرة شديدة الهوس.»

إلا أنني أوضحت في القسم الأول من هذا الكتاب لماذا يمكن اعتبار هذه المذكرات والرسائل مزورة. وعلى كل حال، إذا كان تريفور ـ هوبر قد اقتنع بصحتها فانه مسوق حتماً إلى الاعتقاد بوجود علاقات جنسية بين ادولف وإيفا. والواقع اننا نطالع في هذه المذكرات شيئاً يتعلق بلقائهما الأول (الذي يعينه المؤلف في أيلول ١٩٣٧ في حين جرى هذا في السنة ١٩٣٣): «اني أذكر كل شيء كما لو كان ذلك قد حدث البارحة أو اليوم. فعندما أخطرني بواسطة هوفمان بأنه سينتظرني في الساعة السادسة في «المنزل الأسمر» اعتقدت في بادىء الأمر أن ثمة ما يتعلق ببريده أو بعمل مماثل. ولكن لحسن الحظ فهم هاينريش القضية أكثر مني. ويمكن أن يكون قد تحدّثا معاً بشأني، مع انني لا أميل إلى هذا الاعتقاد. وعلى أي حال لقد أحسن هاينريش صنعاً بتحذيري، ولو انه فعل ذلك بطريقة قاسية: «اسمعي، أيتها الصغيرة، لا تنسي قبل أن تذهبي لمقابلة الفوهرر أن تعني بنظافتك. فهو مبالغ في التدقيق، وستروقين له!.»

والحقيقة انني ذهلت، ولست أذكر إذا كنت حقاً قد ازدهيت، أو إذا كنت قد ذعرت.»

ونضرب صفحاً عن تفاصيل هذا اللقاء ما دمنا نعرف كيف تم حقيقة. وسنتكلم عليه فيما بعد. ولن نشير إلى

الأسلوب الصبياني الذي سُكبت به هذه المذكرات العجيبة. ولنخلص إلى نتيجة هذا اللقاء الأول بين إيفا براون وهتلر:

«. واستلقيت على الصوفا. وكنت في السماء السابعة. واستيقظت في سرير. واليوم عبثاً أبحث في زوايا ذكرياتي فلا أستطيع أن أذكر أي شيء. لقد كانت تلك المرة الأولى ـ وذلك حدث يذكره المرء طوال حياته!»

تعترف إيفا في هذه المذكرات، على الرغم من كل شيء، ان تلك السهرة انتهت كما تنتهي كل السهرات التقليدية. ووجود علاقات جنسية لم يوضع موضع شك، دون تعيين نوعها. ونقرأ بعد ذلك:

«خريف ١٩٣٧ ـ قام بتمريناته الرياضية الصباحية: ثني الركبتين، وحركات باليدين. وبعد هذه التمرينات خاطبني بقوله:

ـ في هذا الكفاية اليوم!

وجلس على المقعد، وفرك يديه، وداعب كلبه ركس. ثم قال لي:

ـ هيا استحمي، وبعد ذلك نقوم بنزهتنا.

وكان يراقبني دائماً في أثناء الاستحمام، ويسرني أن أصرّح بأنه لا يشبع أبداً من هذا المشهد. وهو يحب أكثر ما يحب أن ينظر إليّ وأنا أقوم بالتمرينات الرياضية. فعليّ أن أقوم بالحركات نفسها التي يحددها لي، مع أني تلقيت دروساً كافية

في الرياضة. وكان يؤكد لي انني رشيقة، بين آن وآن. وفي أثناء هذه التمرينات كان يلفت نظري إلى بعض التفاصيل. فهو، ولا شك، يعرف جسمي أفضل مني.»

«تشرين الثاني ۱۹۳۷ - أنا لم أره أبداً في مثل حالة الهياج هذه. وفيما بعد دلل لي على مبلغ حبه لي - حبه الذي لا يُحَدّ. .»

«صيف ۱۹۳۹ - لو كان امرأة لاختفى تحت الأرض من شدة حَيائه. ولكن عندما نكون وحدنا، نحن الاثنين، فيا لحرارته ونشاطه، ويا لعنفه! .»

«آب ۱۹۳۹ - كانت رائعة فترة الراحة تلك على ضفاف بحيرة آخن. عبير الغابات والبحيرة الزرقاء، والزوارق. كان لباس البحر في الحقيبة فتكاسلت عن فتحها. فأُوقفت حركة السير على جهتي الطريق ليتاح لي النزول عارية إلى الماء. أما هو فلا يستحم قط، ولا أدري إذا كان يتقن السباحة. وقد استلقى على الشاطىء وراح ينظر إليّ ثم افترشنا العشب، وجفف جسدي بنفسه.»

«آب ١٩٤٠ - لقد جاء. إنه لا يفتأ يردد أنه يحب كثيراً الثياب الداخلية الجلدية: ليس ثمة من يشك في اللذة التي يستشعرها المرء عند لمسه الجلد المخملي، والبشرة المخملية.»

«تشرين الأول ١٩٤٠ - قميص نومي من الحرير

الفرنسي، الناعم، في خفة الانسام، له شرائط بنفسجية، كما يشتهي هو، بالطبع. انها الساعة الرابعة تماماً. أسمع وقع خطاه. . »

«كانون الأول ١٩٤١ ـ. منذ السنة **١٩٣٣** وهو يقول لي: اني اتساءل عما إذا كان ينبغي أن يكون لي ولد، أو إذا كان يحق لي أن أُرزق ولداً. فأولاد العظماء كانوا دائماً في التاريخ أناساً لا قيمة لهم ولا مزية، ولكن هذا التاريخ يمكنه أن يشذّ عن القاعدة مرة واحدة.

«أصابني الدوار لمجرد التفكير في أنني، أنا إيفا براون، يمكنني أن أكون والدة هذا الطفل. سوى انني لم أجرؤ على سؤاله أي سؤال، وأخذت ارتجف. فلاحظ ذلك، وابتسم، وداعبني قائلاً: منذ سنوات وأنا انتظر أن يجد اطبائي وسيلة ما لتحديد جنس الطفل. فأنا لا أسمح لنفسي أن أضع طفلة. ان ذلك ليبعث على الضحك: هتلرة صغيرة!»

* * *

وفيما يلي ما كتبته السيدة اليزابت شيروتي، زوجة السفير الايطالي في برلين، عن هتلر وإيفا براون:

«كان هتلر يجهل الحب. فأنا لم أصدّق مطلقاً أي كلمة مما قيل عن مغامراته مع إيفا براون، أو أي امرأة أخرى. كانت له شهوات وأهواء، ولا ريب، ولكنني مقتنعة من انه لم يكن

ذا قابلية جنسية. وعلى الرغم من انه كان يبذل جهده ليبدو لطيفاً مع النساء، فقد كان واضحاً جلياً أنهن لا يثرن اهتمامه. وإذا كان بصره يتجه طوعاً وبسهولة نحو السيدة غوبلز التي كانت تقدّس الأرض التي تطأها قدماه، فإني أشك أن يكون قد جرى شيء بينهما، أو بينه وبين إيفا براون، السيئة الحظ. فقد كان يحبّ وجود النساء معه لا أكثر ولا أقل.»

وبالرغم من هذا التأكيد الجازم تروي لنا السيدة شيروتي حكاية تلقي ضوءاً جديداً على عالم سيد ألمانيا الجنسي، فتقول:

«روت لي البارونة فون بركنفيلد التي لم تؤثر النازية في روحها المرحة الفكهة في قليل أو كثير، القصة المسلية التالية عن هتلر وإيفا براون. وكانت تعرف إيفا براون معرفة شخصية. فذات يوم، وبينا كانت تتنزه في شارع «اونتر دن لندن» (تحت ظلال الزيزفون)، أبصرت سيارة فخمة تتوقف على حافة الرصيف، وتترجل منها إيفا باسمة. فبادرتها بقولها:

ـ آه، أيتها البارونة العزيزة، ما أسعد حظي بلقياك. فأنا في مأزق حرج، وأنت وحدك يمكنك أن تنقذيني.

أما هذا المأزق فكان قضية اختيار هدية للفوهرر لمناسبة عيد ميلاده القريب. ودعيت البارونة إلى مساعدة إيفا في

شراء مائدة للشاي ترضي رغبة هتلر.

ووجدتا نفسيهما أمام مخزن فريدمان الشهير الذي اختفى أصحابه غير الآريين ليحلّ محلهم آريون خالصون. فدخلتا، وطلبت البارونة إلى مدير المخزن أن يريها موائد الشاي. وكان لوقوف سيارة هتلر أمام مدخل المخزن أبلغ الأثر في نفس المدير الذي حمل اليهما كل موائد الشاي، وعليها أجمل أطقم الشاي الفضية وأفخرها. ولكنها لم تجد بينها ضالتها المنشودة. وفي النهاية أوضحت أن المائدة التي تريدها يجب أن يكون سطحها مصنوعاً من الزجاج وتحته حويض يحفظ فيه السمك. فأدهش هذا الطلب جميع الموجودين والمدير الذي سارع إلى القول إنه إذا لم يعثر على مائدة مماثلة في المخزن ففي الوسع صنع مثلها، ويسرّه أن يضع الرسوم والمخططات بين يدها، فوعدته إيفا بالعودة لرؤية الرسوم. ولما أصبحتا خارجاً، خاطبت البارونة بقولها:

- أرأيت أنه يرغب في مائدة للشاي سطحها زجاجي وتحته سمك صغير أحمر يسبح في الماء بينما أقدّم إليه الشاي مرتدية ثوباً أخضر شفافاً؟

أنا لا أشك لحظة في صحة هذه الرواية. ففكرة مشابهة لا يمكن أن تنبت إلا في دماغ مريض كدماغ هتلر.»

وهذه رواية أخرى للسيدة شيروتي تلقي ضوءاً على «الحياة العائلية» عند هتلر وإيفا براون، لا على حياتهما الجنسية:

«ان هذه الرواية تفصح عن ذوق هتلر. فقد ذكرت إيفا للبارونة أنه يصعب جداً ارضاؤه. فعندما سألته أي هدية يشتهي لمناسبة عيد الميلاد أبدى تأثره العميق ورغبته في الحصول على شرشف تُطرِّز حواشيه «بقطبة» الصليب.

قالت إيفا:

ـ وانكببت على العمل ليل نهار حتى انهكت عينيّ. ولكني سرعان ما ايقنت انني لن انتهي منه على عيد الميلاد. فحملته إلى أحد المخازن لاتمامه وأوصيت بكتمان السر. وصباح العيد لمعت عيناه من فرط الغبطة عندما وقعتا على الشرشف تحت شجرة الميلاد، ولكنه ما أن تفحَّصه عن كثب حتى تبدلت ملامحه، وقال لي بغضب:

ـ لقد خدعتني! فأنت لم تصنعي إلا هذه الزاوية. أما الباقي فمن صنع سواك!

واحسست بالاغماء، ولم استطع انكار الحقيقة. لقد كان ذلك رهيباً! تلك كانت أذواق هتلر: من الموسيقى يحب ألحان جوقات المقاهي، ومن التطريز قطبة الصليب، ومن الجمال النسائي إيفا براون.»

إنه حكم ذو قسوة نسوية. فإيفا كانت جميلة، رقيقة، سليمة البنية، تحب الحب. وهتلر كان له كل الأمزجة والطباع، وكل مزايا التطبع التي اتاحت لذكائه النمو. وخدمت ذاكرته الجبارة، ولكنها في الوقت نفسه ضاعفت

سورات غضبه، وفسـرت عدم استقـراره، وبرّرت جنـون العظمة فيه. فكيف استطاع هـذان «الزوجـان» أن يسعدا خلال اثنتي عشرة سنة، وكيف استطاع هذان المخلوقان أن يتحابا إلى درجة الوصول إلى هذا الحد، وهذا السمـو في الحب الذي هو الموت المشترك؟ هنا يكمن سر علاقات هتلر وإيفا براون الذي سنحاول جلاءه.

الفصل الثالث

اكتشاف الحب



لم تكن إيفا براون لتصدّق أن هتلر شبيه بغوبلز، وهملر، وغورينغ، وبورمان، والدكتور موريل، وفاغيلاين وسواهم من الذين قلبوا ألمانيا رأساً على عقب، وحطموا حياة مواطنيها وآمالهم، وزرعوا الدمار والرعب، والسأم. فالرجل الذي أسند رأسه إلى كتفها، والذي غالباً ما انقذته من اليأس، والذي عرفته مطمئناً، رقيقاً، قلقاً - هذا الرجل لا يمكنها أن تنظر إليه إلا كمخلوق انساني لا يختلف كثيراً عن موزع البريد أو موظف في شركة تأمين. كانا يعيشان حياة هادئة وادعة في ضواحي نورنبرغ أو هامبورغ قبل أن يعصف جنون الحرب برؤوس أسياد الرايش الثالث، ويرسلوهما ليرويا حقول النورماندي الخضراء بدمائهما، أو لينثرا أجزاء جسديهما على جليد ستالينغراد.

لم يكن هذا النمساوي القصير، بمشمّعه، وبشاربه المربع، وبخصلة الشعر المسترسلة فوق جبينه، وبملامحه الكروية الشكل المليئة بالأخاديد - ضريبة الأرق المتواصل - حسن

المنظر، ولكن ذلك لا يمنع الصغيرة إيفا من نزع صورته عن منشور وزعه اعضاء الحزب النازي الذي يواصل الكفاح بالرغم من وجود زعيمه في حجرة السجن في قلعة لاندسبرغ يحرر الصفحات الأولى من كتابه «كفاحي».

أجل، ان ادولف هتلر هو النجم المفضل لدى إيفا. فزميلاتها في الصف يعبدن دوغلاس فيربانكس أو رودولف فالنتينو، وشقيقتها غريتي تقلد حركات تيدا بارا، الممثلة ذات الأنوثة الصارخة. انهم أبطال بعيدون، صنعتهم الدعاوة، أكثر جاذبية وفتنة من هذا المحرّض القصير المحتاج الذي ملأ حانات المدينة بآرائه الجريئة.

ـ الموت للخونة! لتسقط معاهدة فرساي المفروضة فرضاً!

ان مثل هذه العبارات تنفذ مباشرة إلى قلوب جميع الذين اشتركوا في الحرب الكبرى، الذين كافحوا وتألموا طوال أربع سنوات لينتهي مصيرهم إلى الشقاء والعار.

والهر براون نفسه، الذي حارب في أرغون، بفرنسا، والذي يفخر بأنه اشتراكي، لا يستطيع إلا التأثر بهذه الدعاوة. وهو نفسه الذي يحمل إلى مائدة الأسرة أقوال المتهم هتلر أمام المحكمة الشعبية خلال محاكمة المسؤولين عن محاولة قلب نظام الحكم:

ـ أنا لا أستطيع أن اعتبر نفسي مذنباً، ولكنني اعترف بالوقائع، وليست القضية قضية خيانة عظمى عندما تكون

ضد خونة عام ١٩١٨ فأنا، في نظر نفسي، لست خائناً، بل أنا ألماني يريد خير شعبه.

كانت إيفا تصغي إلى هذه الأقوال النابضة بالقوة فاغرة فاها، مثبتة عينيها بشفتيّ والدها. أصحيح أن هتلر الرجل القصير الذي يرتدي مشمعاً قال ذلك وهو يتعرض لخطر الحكم عليه بالموت؟ ان بطلها يصبح حقيقياً أكثر فأكثر، وأعظم من أبطال السينما. ان هذا الرجل الذي تحترمه والذي كان محط أول انطلاق لشعورها النسائي، رجل من لحم ودم. فهو ليس أحد ممثلي السينما البعيدين الذين يمكن حتى الشك في وجودهم. انه يعيش في ميونيخ، وسيعود إليها يوماً.

وفي درج المنضدة التي تكتب عليها فروضها المدرسية وهي تمدّ لسانها تخفي إيفا قصاصات الصحف التي تروي مراحل المحاكمة. فكل ما يروى عن هتلر يهمها إلى حدّ بعيد. ان عدد المعجبين بهتلر من الصغار كبير جداً في ألمانيا، والسبب في ذلك أن آباءهم، وهم المحاربون القدماء، يغذّون هذا الاعجاب لأنهم، كهتلر، لم يستطيعوا تذوّق مرارة الهزيمة. فتراهم فيما بعد يشكلون صفوف حرس هتلر الخاص المتعصب. ولكن أملهم في لقاء معبودهم ذات يوم ضئيل جداً ضآلة أمل عاملة بسيطة في نابولي أو تورينو، مثلاً، بقضاء أسبوع في جزيرة كابري برفقة غاري كوبر. أما إيفا فكانت كتلك الخادمة التي لا تفتأ طوال حياتها تنتظر أن تسنح

الفرصة لمعبودها العاطل عن العمل كي يحتسي كأساً من الشراب حيث تعمل. أما الباقي فرهن بحرارتها، ومهارتها، أو بالقدر.

ولكن يخطىء من يعتقد أن عبادة هتلر كانت تملأ حياة بطلتنا الصغيرة. فهناك أمور كثيرة تشغل فضولها الصبياني، وتصرفها أياماً وأياماً عن أدولف هتلر الذي يبقى مسجوناً طوال أسابيع داخل الدرج... وسواه من الرفاق السيئي الطالع سينضمون إليه فيما بعد لأن جسد إيفا مسرح لشهوات وأهواء غير محددة. انها جميلة، صحيحة البنية، متفتحة على الحب قبل الأوان، ومنظر الشبان يثير في كيانها رغبات لا تجرؤ بعد على تحليلها.

كانت إيفا صغرى شقيقتيها غريتي وإيلزه اللتين كانتا أكثر رصانة واتزاناً منها. تفكّران في المستقبل، وتودّان العثور على مهنة تتيح لهما كسب معيشتهما، ومن ثم الزواج، وتربية الأطفال. سوى أن إيلزه وحدها تحقق هذا الأمل البورجوازي، فتصبح السيدة سوشكه. أما غريتي التي تعلّق مصيرها بمصير إيفا فتتزوج من فاغيلاين، قائد الحرس الخاص، وكان من قبل مرافقاً لرودولف هس، فما لبث أن خانه ليصبح موضع ثقة الماكافيلي مارتن بورمان. وقد أعدمه هتلر قبل أيام من انتحاره في ملجأ قصر المستشارية.

سوى أن هذه الأحداث ما تزال بعيدة. ولو ان منجّما

رواها لإيفا الصغيرة لهزّت كتفيها وانفجرت ضاحكة. فهي لا تفكر في غير اللهو والحياة السعيدة. انها في الرابعة عشرة من سنيها، تغتبط عندما تعلم أن هتلر أُطلق سراحه، فعاد يستأنف نشاطه السياسي في ميونيخ. ولكن الدهشة تأخذها لانعدام حماسته السابقة.

لقد انتهت دروسها في المدرسة الثانوية، وهي تتأهب الآن لتقديم الامتحانات في المحاسبة التجارية والأعمال المكتبية. بيد أنها ذات ولع شديد بالرسم والرقص. أوَليست ميونيخ عاصمة ألمانيا الثقافية؟! وفي مسكنها الصغير في الكسندرشتراسه ترى العديد من الشبان، اصدقاء شقيقتيها ايلزه وغريتي، فتسمحان لها أحياناً بالخروج وإياهم في نزهات ورحلات إلى الغابات التي تحفّ بجبل شميتنهورن الذي ترى قمته، أيام الصحو، من شباك بهو منزلهن.

وإيفا الحالمة عندما تستعيد ذكريات الصبا هذه، فيما بعد، فإن جو تلك السنين السعيدة يزخر بوجوه فتية بشوشة، وبابتسامات نهمة، رقيقة. باتسامات شبان ذوي ملامح غير واضحة بعد، ولكنها حارة لاعجة. ذكريات يكتنفها الضباب، يلقي فيها المراهقون بأجسادهم وأرواحهم إلى الحب، وليس لهم عمل إلا أن يصبحوا قادة إيفا لاكتشاف الحب.

وماذا يهمها أن يكون هؤلاء الشبان قليلي الخبرة مثلها، أو

أن يكونوا، على النقيض، مضلِّلين طواغيت، فهم رسل الحب الرقيقو القلب، الساخرون، الكلفون: أيديهم ليست أيدي رجال ولكنها ملامسات ومداعبات لذيذة، وثغورهم ليست ثغوراً، ولكنها قبلات.

وتتابع إيفا على جسدي شقيقتيها العمل البطيء الذي يحولهما إلى امرأتين: فعندما ينهد صدر أيلزه ويتكور خصرها، تراها تجد لذة فائقة. ان ذلك لهو تحوّلها الشخصي تتأمله قبل أوانه بشهور. والفتاتان تتعريان من ملابسهما أمام الطفلة الغريرة الفضول دون ما حرج، وتكشفان لها مفاتن جسديهما المتفتحين، وتسمحان لها بأن تلامس بيدها الخرقاء بشرتيهما المخمليتين الناصعتي البياض، الدافئتين. فهي تقرأ مستقبلها في راحة يدها لا في خطوط كفها.

ويأتي يوم يقف فيه تحت نافذتها فتى في مثل سنها يدعى فرانز أو إريك، أو كارل ـ ولندْعُهُ إريك، فيصفر المقطع الأول من لحن تانهاوزر لرتشارد فاغنر، فتسرع إلى النافذة وتلوّح له بيدها، ثم تعود إلى المرآة فتصبغ شفتيها بالأحمر، وتتناول حقيبتها اليدوية التي أُهديت إليها في عيد الميلاد، وتنحدر على السلّم، وترتمي بين ذراعيْ حبيبها. وتروي له دقائق حياتها منذ يومين، وشقاءها في مدرسة الضرب على الآلة الكاتبة، وهما يتجهان، اليد باليد، شطر محطة القطار الكهربائي. وفي مؤخرة القطار تلتصق بهذا الجسد الفتيّ

الذي طالما حلمت به غير مبالية بالبافاريين المتزمتين الذين يدخنون الغليون وينظرون إليها شزراً.

مادا يهمها وبجانبها رجل. فهي تحب، وتشتهي، وهي بحاجة إلى هذا الرجل.

وبعد قليل، عندما تستلقي وإريك فوق العشب جنباً إلى جنب، سيتأملان مياه نهر ايزار وهي تهدر في جريها، أو السحب السابحة في الفضاء. وتمتد يد إريك النهمة إلى جسدها تدغدغه، وتنساب فوق ساقيها، ثم تحاول أن تندس في صدرها. فتدافع عن نفسها لأن الفتاة المهذبة تدافع دائمًا، ولكنها سرعان ما تستسلم إلى نداء جسدها، فتلتصق به بوله وعنف، وتضع شفتيها على شفتيه، وتعبّ اللذة المشتهاة التي تنسيها حتى وجودها، وهي مغمضة العينين، سابحة في عالم جميل غير هذا العالم.

هذا ما كان يدور في خلد إيفا والقطار ينساب بها. ويدفعها خيالها الذي يزيّن لها اللذة والنشوة اللتين ستحسها بعد قليل إلى شد أناملها حول ذراع حبيبها.

انه اليوم إريك. وبعد أسابيع يخلف كارل إريك هذا، ولكن كارل لا يلبث بعد ردح من الزمن أن يفسح المكان لفرانز. فاللذات هي هي دائمًا، ولكنها أبداً تتجدد! ويبقى الرجل أروع دمية أوجدتها الطبيعة من أجل لهو النساء ولذتهن. هذا، على أي حال، ما تعتقده إيفا وتقتنع به.

سوى أنه ينبغي لها أن تنتظر حوالى عشرين سنة قبل أن تكتشف أن الرجل كذلك ماهر في خلق تعاسة النساء وبؤسهن.

وأنّى لها أن تتألم وهي لا تكلف بأحد؟! ولماذا تقلق، وكلمة «مستقبل» بالنسبة إليها خالية من كل معنى، وليست سوى مرادف مبهم للملذات والشهوات غير المحدودة؟ فهي لا تبالي بالعالم المحيط بها، وبالبؤس، وبالاضطراب السياسي.

إن حبها الوحيد المجرّد، بلا أمل. انه حبها لمحرّض قصير القامة، خرج حديثاً من السجن، تجهل انه منكبّ على وضع كتاب سيساعد على تقرير مصير ألمانيا. وهذا الكتاب، انه يضعه في دارة ستقضي فيها أسعد سني حياتها ـ دارة ستمسي فيما بعد «عش النسر» في برشتسغادن.

وهي تظهر هذه اللامبالاة نفسها تجاه زميلاتها وآرائهن فيها. ومع ذلك قسون في الحكم على سلوكها.

يقول القاضي ميكائيل موسمانو في كتابه: «عشرة أيام بين هتلر والموت»:

«يروي الجنرال كولر أن زوجته في صباها كانت تذهب وإيفا إلى المدرسة، فمنعها والدها من معاشرة إيفا في المدرسة أو خارجها بسبب علاقاتها المريبة ببعض الفتيان.»

ولكن إيفا لا تبالي كثيراً بامتناع زوجة كولر العتيدة أو سواها من زميلاتها عن الاختلاط بها ومعاشرتها. فالفتيان ـ لحسن طالعها ـ لا وساوس مماثلة لديهم، وهم لا يساومونها على حبهم. وتبقى شقيقتاها صديقتيها الحميمتين، لا تتحوّل محبتهما لها مطلقاً، لا سيما محبة غريتي لها.

ففي الحقيقة كانت إيفا، صغرى عائلة براون، الفتاة المدللة الطروب، الرقيقة، الضاحكة، التي لا تعرف إلى الخبث سبيلاً.

ومما قالته والدتها فيما بعد عندما جاء المحققون الحلفاء يستجوبونها:

ـ كانت ايفا شديدة الاعجاب بنفسها، ترفض القيام بأي عمل في المنزل.

ولكن أي رقة يخفي هذا القول! فالأم تفخر سراً بأنها والدة ابنة كانت لها نظرة غريبة خارقة. وعلى أي حال، جعل هتلر، قبل موته، رفيقته الشقراء المخلصة، زوجته الشرعية. أفلا يكفي هذا العمل ليغفر جميع الخطايا التي ارتُكبت قبل الزواج؟ وقد كتب ميكائيل موسمانو الذي زار السيدة براون في منزلها الصغير في ايزنايرتس، يقول:

ـ «على منضدة حجرتها الصغيرة يمكن رؤية رسم كبير لابنتها الشهيرة وهي ترتدي ثوب سهرة أبيض رائعا».

ومن ثم ذهب يستجوب المصور، فكتب يقول:

ـ «كان فخوراً بصنيعه، وهو يذكر جيداً أن إيفا ألحت عليه لكي يصنع لها رسماً جميلاً لأنها تودّ أن تقدمه إلى الفوهرر لمناسبة عيد ميلاده. وقد قدّمت نفسها إليه على أنها أمينة سر هتلر، وتلك فكرة تدلّ دلالة واضحة على سذاجة هذه الفتاة إذا كانت حقاً تعتقد أن ثمة من سيصدّق روايتها.»

ولكن والدها الهر براون لم يستطع أن يتغلب على مرارة الدور الذي اضطرته ابنته إلى تمثيله. فبعد أن تحمّل كل شيء تراه اليوم يردد: «لماذا انكروا عليّ حقي في التقاعد بعد خدمة أربعين سنة في الادارة المدنية؟ فأنا على أي حال لا أستطيع أن أحول بين إيفا وعلاقاتها بالفوهرر. وكنت أفضّل أن تأتيني بأي زوج مناسب.»



ولكن قبل أن تقف إيفا في ثوب سهرة أبيض أمام مصور أرعبه مقام الزبونة الاجتماعي، ولا سيما أهمية الشخص الذي سيُدعى إلى الحكم على صنيعه، تعرفت إلى عدد من الفنانين، والرسامين، والمصورين، ماهرين، ولكنهم مبتدئون، عرفوا كيف يوفقوا بين المتعة والعمل، وبين المفيد واللذيذ.

ومما لا شك فيه أن رودولف كبلر الذي زينت ريشته العديد من قاعات الأبنية الفنية النازية، كان معلمها الأول في أصول الحب. فلقد كان، ولا ريب، حبيبها، ووجدت فيه العاشق ذا الألف جسد والألف وجه الذي رافقها في صباها.

كان رودولف عنصراً جديداً في حياة ايفا التي بدأ صباها يتفتح، وبدأت تنضج شيئاً فشيئاً. ولم يكن فتىً غراً كسائر رفاق اللعب العاديين، بل كان رجلاً، لم يحتفظ من الصبا بغير الحماسة والطموح، تحيط به طائفة من الشبان والصبايا. ولكنه يلمح هذه الفتاة الخفيفة، ذات الشفتين المكتنزتين، والشعر الكستنائي القريب من الشقرة. سوى أن ما أدهشه فيها هو هذا العنف الحيواني الذي ينبثق من جسدها. فإيفا أشبه بالجواد الجموح الذي يقبض عليه فما يفتأ يكدف لقطع الحبل الذي يشدّه، والانطلاق حراً من كل قيد. وعندما قابلها أول مرة، إذ قادها ألى محترفه أحد أصدقائه، سألها:

ـ هل أنت راقصة؟

فرفعت إليه بصرها الصافي وأجابت دهشة:

ـ لا

ـ انك تخطئين.

ولم يهتم بها بعد ذلك، بل واصل مع أحد اصدقائه حديثاً عن فن الرسم.

وانقضى بعد ظهر ذلك اليوم في بعض المداعبات الخفية،

والمحادثات. وكانت إيفا وصديقها الشاب يقهقهان ويشربان البيرة، ويختلسان القبلات، ويتخاصران.

وعندما وشّت أشعة الشمس زجاج المحترف باللون الأحمر، وأضاءت شعرها المشوش، لاحظت، لفرط دهشتها، ان الرسام يتأملها منذ بضع دقائق. قال لها:

ـ أحب أن أصنع لك رسمًا.

فابتسمت ابتسامة فيها تحدٍّ قائلة:

ـ عندما تريد!

ـ غداً؟

ـ غداً!

وإذا كان الرسام قد فكّر في تلك الليلة باللوحة التي سيرسمها، وبالأضواء، وبالوضع الذي سيعطيه لنموذجه، فإن إيفا في حجرتها تحلم بيدي ادولف العصبيتين المتسلطتين، ونظراته التي لا تُقهر. وبعد ظهر اليوم التالي، وقفت على باب محترفه، وقلبها يخفق، ولاحظت بحزن وغضب أنه يكاد لا ينظر إليها أو يأبه لها. وما لبث أن دعاها إلى الدخول. واتجه شطر النافذة الكبيرة، ومدّ الستائر، واشعل بعض المصابيح، ثم بسط على الأرض جلد دبّ، قائلاً:

ـ سنعمل على النور الاصطناعي، وإلا فلن ننتهي من عملنا. بالأمس رأيتك حمراء، وهذا هو اللون الذي احتاج إليه.

وسلّط على الجلد نوراً كشافاً يبهر الأنظار، ثم مال إليها قائلاً:

ـ استلقي فوقه!

فتهالكت إيفا فوق الجلد، وانتثر شعرها كهالة حول رأسها الدقيق، فبدا كأنه وسط شعلة من النيران تحت النور الأحمر الوهاج.

فقال لها:

ـ إلقي رأسك إلى الوراء.

فأطاعت، ورأت رودلف مقلوباً يجهّز مسند الرسم، واللوحة، ويضع جانباً لوحة الألوان وصندوقتها.

ثم اطفأ بقية المصابيح وتقدّم، وجعل ينظّم وضعية ذراعيها وساقيها، محاولاً أن يبرز أكثر ما يمكن ثنية الخصر، وانصرف إلى عمله. وانقضت الدقائق في صمت عميق لا يعكّره سوى دقات ساعة غير منظورة. وفجأة زفر رودولف زفرة حزن قائلاً:

ـ ان العمل هكذا غير ممكن!

ـ وكيف ذلك؟

ـ لست أدري. انه ثوبك، يمنعني من ادراك كل عنفك الحيواني، وحيويتك الدافقة..

وحدّقت فيه ببساطة:

ـ أتريد أن أنزعه؟

فدهش، وبقي صامتاً بضع لحظات، ثم سألها:

ـ ألا يضايقك أن تقفي عارية أمام رسّام؟

فابتسمت قائلة

لا ـ لماذا؟

ودون أن تضيف أي كلمة نهضت وتعرت من ثوبها، وكانت ترتدي تحته قميصاً قطنياً فنزعته، مبدية بشرة كمدة، شبقة، جامدة. فتأمل رودولف هذا الجسد الذي كان متأكداً من جماله، وردّد:

ـ حقاً، ينبغي لك أن تحترفي الرقص!.

وعادت إيفا فاستلقت على جلد الدب. أما رودولف فإنه يحسّ الآن عمله، فينكبّ على الرسم. ويتقدم بهما الليل فيقول لها:

ـ لن نستطيع انهاء عملنا اليوم، وستتأخرين في العودة إلى البيت.

فتجيبه قائلة:

ـ لا بأس، فقد قلت لوالدي اني سأقضي الليل عند إحدى صديقاتي.

وصنع رودولف اللوحة بعد أن مارس معها عملية الحب. وقضيا الليل بطوله في العمل حتى أُنهك جسداهما. وكانت تلك اللوحة من أفضل لوحاته. وبعد أن وصلت إيفا براون إلى المركز الخطير الذي بلغته طلبت إليه أن يتلفها فلم يتردّد

في احراقها لأنه لا يريد أن يقضي حياته في أحد المعتقلات.

وهكذا اعتادت إيفا أن تقضي لياليها خارج البيت متذرعة بأنها تقضيها عند صديقاتها. وقد لجأت إلى هذه الحجة عند بدء علاقاتها بادولف هتلر. ولم يكتشف والدها علاقاتها هذه بسيد ألمانيا العتيد إلا عرضاً واتفاقاً، كما سيمرّ معنا.

وفي الوسط الذي كان يعيش فيه رودولف تعرّفت إيفا إلى سواه من الفنانين والمصورين الذين قبلت أن تكون نموذجاً لهم. وكانت تتابع دروساً في الرقص. وتتفتح مفاتنها شيئاً فشيئاً حتى باتت تلك الحسناء الرائعة التي فتنت الفوهرر. ولكنها ظلت رحبة الصدر، رزينة، لا تعرف إلى الطمع والأذى سبيلاً. حتى الذين لم يكونوا ليشتهوها كانوا يشعرون نحوها بالعطف. فلما تعرفت إلى هنرييت هوفمان لم تتردّد هذه في تقديمها إلى والدها الذي ألحقها بالعمل عنده.

وكان هتلر قد منح هوفمان، مكافأة له على تضحياته الكثيرة، امتياز رسومه ورسوم الحزب، وهو مورد ضخم سيقتسمه عما قريب مع موظفته الجديدة التي سيظل صديقاً حميًا لها.

وكُلِّفت إيفا بتصنيف هذه الرسوم، فمرت تحت أنظارها آلاف وآلاف من رسوم ذلك الرجل الذي أفردت له في قلبها مكاناً مختاراً. واستيقظ من جديد حبها القديم. وعبادتها، وهي فتاة صغيرة، لبطل الانقلاب الفاشل كانت تقوى شيئاً

فشيئاً بتأملها كل يوم آلاف الصور تبرز جبين هتلر تسترسل فوقه خصلة الشعر المعهودة، والشاربين المربعين. وما هي إلا أسابيع قليلة حتى عرفت الفوهـرر دون أن تراه. وكـانت تقضي وقتها أمام الأدراج الصغيرة التي تضم هذه الرسوم، وتستغرق في تأملاتها أحياناً إلى درجة أنها لم تكن تشعر أن البروفسور هوفمان ـ كما كان يُدعى ـ يدنو منها معلناً حضوره بضربة على قفاها.

ـ هل يعجبك فوهررنا؟

وكان نظرها التائه الجواب الوحيد.

ـ سترينه قريباً!

ـ متى؟

فينفجر هوفمان ضاحكاً:

ـ مهلاً، إنه في برلين، ويدور البحث حول تعيينه وزيراً، ولكن هندنبورغ العجوز لا يريد أن يسمع شيئاً عنه. غير أنه تغلّب على عدة مقاومات.

ـ هل أستطيع رؤيته عندما يأتي؟

ـ بالطبع!

وذات يوم قال لها هوفمان:

ـ لقد أعلن انه سيصل غداً.

وفهمت إيفـا كـل شيء، ومضت في عملهـا مـرتعشـة اليدين. وفي تلك الليلة لم يغمض لها جفن.

* * *

تعوزنا التفاصيل الدقيقة عن هذه المقابلة التاريخية التي تضاربت بشأنها أقوال المؤلفين والشهود. وفيما يلي نورد رواية ميكائيل موسمانو التي تبدو أقرب إلى الحقيقة والواقع:

«أوفد هاينريش هوفمان إيفا براون إلى حانة مجاورة لتحضر جعة وبعض المقانق ليقدّمها إلى ضيفه. وفي أثناء هذه الوجبة البافارية الشهية تأمل هتلر قوام إيفا اللدن، تلك الفتاة التي أصبحت عشيقته والسيدة الأولى في ألمانيا.»

ولاحظ الدكتاتور العتيد كذلك بصرها التائه الكلف، ويديها المرتعشتين وهما تقدمان الصحن. وانقضت أسابيع قبل أن تتحول علاقتهما إلى علاقة شبه رسمية. وكانت لهما مقابلات سرية، وليالٍ مختلسة.

ولكن هتلر لم يستولِ على إيفا براون بالسهولة التي استولى بها على الشعوب. فوالدا عشيقته لا ينتميان إلى تلك الطبقة الارستقراطية التي تعتبر سيطرة ابنتهما على اهتمام سلطان ما ورغباته نصراً مبيناً.

وكان السيد براون وزوجته وابنتاهما غريتي وايلزه على بينة من تحمُّس إيفا لهتلر. ولكن ذلك لم يكن أمراً يبعث على الدهشة. فالشطر الأكبر من ألمانيا كان يهلل لهذا البافاري القصير. وكان الوالدان ينظران إلى اطراء ابنتهما له، نظرهما إلى اعجاب ابنتيهما الأخريين بممثلي السينما الذين لن يلتقيا بهم أبداً. وبين آن وآخر كانت إيفا تقضي ليلتها خارج

البيت قائلة انها نامت عند إحدى الصديقات.

بيد أن استقلال إيفا هذا المطرد كان يشغل بال والديها. وقد اتفق بعد ظهر يوم أحد من سنة ١٩٣٣، وبُعيد وصول هتلر إلى الحكم، ان كان والدا إيفا يجتازان في سيارة بلدة لمباخ الصغيرة قرب برشتسغادن عندما أوقف بعض الحرس الخاص حركة السير دون ابداء الأسباب. وعلى الأثر توقفت سيارة مرسيدس فخمة أمام فندق لمباخ فأبصرا إيفا تترجل منها. ففركت الأم عينيها ظناً منها انها في حلم لا في يقظة، وهرعت إلى ابنتها تسألها:

ـ إيفا، ماذا تفعلين في هذه السيارة؟

ثم تقدَّم والدها وقال لها بخشونة:

ـ من أين أنت آتية؟ ماذا يعني عملك هذا؟

فأجابته باستخفاف:

ـ اني آتية من قصر برغهوف!

قالت ذلك وغادرتهما، ودخلت الفندق، وما لبثت أن أقبلت سيارة أخرى ترجّل منها الفوهرر. فتراجعت الأم لتختفي بين الجمع المحتشد، في حين تقدّم زوجها شطر هتلر وقال له:

ـ أنا والد إيفا!

فأجاب الفوهرر ببساطة:

ـ أين السيدة زوجتك؟

ولم تشأ الزوجة أن تتقدم فجرّها زوجها لأنه كان مصمماً

على أن يحظى من الفوهرر بايضاح. فلما مثلا أمامه حيّاهما بيده اليسرى ودخل الفندق. وبقي الزوجان مسمّرين في مكانهما، هدفاً لانظار الجماهير التي تساءلت عمن يكون هذان البورجوازيان اللذان استطاعا اعتراض سيد ألمانيا دون التعرّض لغضبه. وفي اللحظة التي همّا فيها بالانصراف أقبل أحد مرافقي هتلر وصاح بأعلى صوته:

ـ ليأتِ السيد براون وزوجته.

وضربت السيدة براون الأرض بقدمها وعارضت في الدخول، ولكن زوجها أقنعها بأنه من المستحسن اطاعة الفوهرر. ودخلا حجرة هتلر فقدّم إليهما مقعدين خاليين بقربه بعد أن صافحهما. ولم يحدّثهما إلا حديثاً عادياً عن المناظر الطبيعية، والجبال، والحلويات، والشاي، وأمور مماثلة. وكان يبدو أنه مرتبك.

الفصل الرابع

عش الغرام



لم يكن هتلر يستقبل عشيقته في «الدار السمراء» ـ كما تحمل على الاعتقاد مذكرات إيفا براون الزائفة ـ ولا في منزل هوفمان. بل كانا يلتقيان في مسكن سري في ميونيخ.

ويبدو عجيباً غريباً أن يستطيع العاشقان اللقاء في أغلب الأحايين ـ مرة في الأسبوع على الأقل ـ ولوقت طويل دون أن يتسرب شيء عن هذه العلاقة. كما يبدو عجيباً كذلك أن يجهل والدا إيفا في تلك الفترة حياة ابنتهما المزدوجة. فمن أجل ذلك كان لا بد لهما من شركاء يوثق بهم، وان كانوا متجردين. فكان هناك عدا المصور الفطن هاينريش هوفمان، زوجته التي لم تكن لتقلّ عنه دهاء. فهي عندما عرفت ان هتلر يبدي اهتماماً بالفتاة التي تعمل لديها لم تدع لها أي راحة، بل كانت تستحثها على تلبية نداءاته.

لقد رأينا أنه لم يكن ثمة حاجة إلى الإلحاح طويلاً على إيفا لدفعها إلى أحضان ذلك الذي كان قد أصبح إلاهها. وما دامت إيفا تعمل في محترف هوفمان فلم يكن أسهل من

الاتصال بها إما كتابة أو تلفونياً.

وكانت هناك شريكة من عائلة براون نفسها، وهي شريكة لا غنى عنها ـ انها غريتي، شقيقة إيفا الكبرى. فعندما كانت إيفا تقضي ليلة مع الفوهرر كـانت غريتي هي التي تعلن لوالديها أنها تقضي ليلتها لدى إحدى رفيقاتها. وعندما كانت هذه العاشقة الولهى تذهب للسهر على راحة حبيبها العظيم في أثناء اقامته في برغهوف، كانت غريتي تخدع والديها وتقول لهما انهما تقومان معاً برحلة، في حين تلزم ميونيخ فلا تبارح «عش الغرام» حتى عودة إيفا.

وقد اكتشفت عش الغرام هذا القوات الأميركية السنـة ١٩٤٥ وفيـما يـلي الـوصف الـذي أوردتـه مجلة «لايف» الاميركية في عدد أيار من تلك السنة:

«في جملة الأشياء التي وُجدت في هذا المسكن الذي كانت تعيش فيه إيفا براون واختها غـريتي: حلقات للتمـرينات الرياضية، وخزائن قديمة مـلأى بالأدويـة والعقاقـير، ومنها أقراص لتجديد القوى الجنسية وتنشيطها، وأقراص مخدِّرة، وبعض الأدوات التي تمنـع الحمل. وعـلى الحائط عُلّقت صورة كبيرة لإيفا في مخدعها، وصورة لهتلر مذيلة بعبارة «إلى إيفا» عُلّقت في غرفة شقيقتها. وفي غرفتها كان هناك جهاز تلفوني يتصل مباشرة بقصر برغهوف في برشتسغادن.»

ويكمل مراسل مجلة «تايم» هذا الوصف بقوله:

«كانت الغرفة الخضراء مخصصة لزيارات الفوهرر، وكانت

إيفا تنام في الغرفة الزرقاء. وكانت الشراشف التي تغطي الأسرّة مطرزة برسم الصليب المعقوف، وعلى الجدران انتشرت مجموعة من الرسوم تمثّل إيفا منذ طفولتها في المدرسة حتى مباريات التزلج التي اشتركت فيها. وقدّر ثمن البيت بخمسة وثلاثين ألف مارك. وقد عُثر على مجوهرات وقطع بورسلين نادرة أبرزها طقم قهوة مزيّن برسم هتلر في أوضاع مختلفة.»

والآن لنرَ كيف كانت حياة هتلر وإيفا براون من تصرفات كل منهما، من خلال أقوال الذين عرفوهما عن كثب.

يقول أرتور كانبرغ، خادم هتلر الخاص ورئيس الخدم:

«كثيراً ما كان هتلر في نهاية بعض السهرات، وعندما يكون تعباً منهوكاً أو مضطرباً، يجرع ماء الحشائش المغلية أو بعض الحليب الساخن ويقول لي: أريد أن أتحدث إلى السيدة براون. فأهرع على الفور لاستدعائها. وغالباً ما كانت تنتظر الليل بكامله مسهَّدة على أمل أن يستدعيها.»

وأمام مدعويها كانت علاقاتهما رسمية. ولم تكن لتخاطبه إلا بلفظة «يا فوهرري» محتفظة بلفظة التحبب «أدي» لخلواتهما. وكان هو يدعوها «الآنسة براون» كلما تحدّث عنها. ولكن مع كل هذا التحفظ لم تكن عواطفه نحوها موضع شك أحد: فهذا طبيب أسنان هتلر الخاص، هوغو بلاسشكه، يؤكد أنه كان يعاملها كطفل مدلل. فقد كان العم العجوز الذي يلبي جميع رغبات ابنة أخيه المبذّرة.

ويقول القاضي موسمانو في كتابه «عشرة أيام بين هتلر والموت»: «لم يكن عنيفاً معها مطلقاً. وصوته الأجش الذي كان يرعب الملايين لم يكن ينزل على سمعها إلا برداً وسلاماً. كان يدعوها «ابنتي الصغيرة اللطيفة» (باتشرلي)، ويداعب يدها تحت المائدة، ويمنحها السيارات، والسائقين، والخدم، ويضع تحت تصرّفها قطاراً خاصاً.»

ان هذا الجود يؤكده كاننبرغ: «كان الفوهرر يحرص على أن تتميز إيفا براون بالتواضع والبساطة في ملابسها، ولكنه لم ينجح دائماً، اذ كانت تلحّ على انتعال الأحذية الايطالية ذات الكعب العالي، والمزينة، مثلاً. وكان لديها عدة معاطف من الفرو.

«وكان الفوهرر في كل سنة، ولمناسبة عيد ميلادها في ٦ شباط، يوفدني إلى أحسن جوهري في برلين لأحمل إليه بعض المجوهرات، فيختار منها هديته إليها.»

«. وكانت شديدة الاعتقاد بالخرافات، تطرّز كل بياضاتها برسم مؤلف من الحرفين الأولين من اسمها على شكل نبات الحندقوق ذي الأربع ورقات.»

وهناك من الشهود من يقول ان مديرة محلات الخياطة المعروفة باسم «آن - ماري هايسه» في برلين، كانت تستقل الطائرة أحياناً إلى برشتسغادن لتعرض عليها الأزياء الحديثة.

ولم يكن هتلر ليسمح لها باستعمال أحمر الشفاه، وكان يكره الروائح العطرية. فكانت هي تطيعه عندما يكون بقربها، وتستعيد حريتها في غيابه. وكانت أفضل العطور إليها «شانيل رقم ٥». ولم تكن إيفا لتتوقف عن التدخين عندما تجد نفسها وحدها في غرفتها. وتقول إحدى أمينات سرّ الفوهرر انها كانت تغرغر بعد التدخين قبل أن تقابل حبيبها الكثير الشكوك. وكانت تدمن الشراب، فتجرع كل ليلة تقريباً نصف زجاجة الشمبانيا لأن ذلك يساعدها على النوم. ولم تكن لتشاطره حياته النباتية لأنها كانت تحب مختلف أنواع اللحوم. وكثيراً ما كان يحاول ارغامها على الاكتفاء بالنباتات.

ولم يكن يحق لإيفا، مثلاً، ان تعرّض جسدها للشمس لأن سيدها لا يحب البشرة السمراء. وكانت تشهد السهرات الراقصة سراً لأن هتلر كان يكره الرقص كرهاً لا مزيد عليه.

ولم يكن هتلر ليدعوها إلى أي احتفال رسمي. ولم تشهد مطلقاً أي حفلة من الحفلات الموسيقية المخصصة لفاغنر برفقته لأن ذلك كان جزءاً من نشاطه العام، ولم يكن ليريد أن يراها الشعب الألماني برفقته.

تقول أمينة سر هتلر ان إيفا براون لم تُقم، في السنوات الأولى لعلاقاتها بهتلر، في قصر برغهوف. فقد خُصصت لها حجرة بسيطة في دارة بلاترهوف المجاورة. وكانت تزوره في برغهوف بين حين وحين لتقضي وإياه بضع ساعات.

وأقامت بعد ذلك في دارة صغيرة في ضواحي برشتسغادن

شاطرتها حياتها فيها شقيقتها غريتي. ولم تستقر في برغهوف إلا بعد رحيل انغيلا راوبال، شقيقة هتلر، ووالدة غيلي المسكينة. وقد تم ذلك إثر محاولة انتحار قامت بها إيفا فنجحت لعبتها، لكنها لم تكن محاولة الانتحار الأخيرة.

وجهدت إيفا نفسها لتساير في عيشتها وتصرفاتها وحركاتها المستوى الذي بلغته، فكان أن حذقت عادات المجتمع الراقي. فقد عزمت على أن تصبح امرأة بكل معنى الكلمة، فعكفت على تقليد السيدة غوبلز واتخذتها مثالاً يحتذى. سوى أنها، بالرغم من كل جهودها ونفقاتها، بقيت صبية كآلاف اللواتي يقتصر همهن على الافراط في الزينة، وارتداء الملابس الفاخرة، والتهرّب من السمنة.

وكانت أسعد أيامها عندما يدعوها هتلر إلى مشاطرته وجباته، وإلى استقبال مدعويه. ولكنها كانت تبلغ حدّ الجنون عندما يضطرها وصول بعض الشخصيات إلى الانسحاب إلى جناحها الخاص والبقاء فيه. وكان هتلر يبدّل ضيفة الشرف على مآدبه، ولكن إيفا كانت تجلس دائمًا إلى يساره. وعند مغادرته المائدة كان يقبّل يدها أولاً، ثم يد جارته إلى يمينه.

* * *

مرّ معنا الحديث عن محاولة الانتحار الأولى التي أقدمت عليها إيفا وسبقت بقليل ذهاب انغيلا راوبال. ولم تكن تلك

المحاولة الأخيرة لأن هناك ثلاث محاولات. ولا يُستبعد أن يكون هناك أكثر من ذلك.

ففي مطلع سنة ١٩٣٨، نجحت الآنسة يونيتي متفورد في مقابلة هتلر أكثر من المعتاد، فشقّ عليها ذلـك، فحاولت الانتحار مرة ثانية، وعاد إليها حبيبها.

ومذ ذاك خشي هتلر أن تعيد الكرَّة فتثير فضيحة كبرى. أما هي فقد أيقنت أن هذا التدجيل تكتيك ناجح، فعاودت الكرّة لتحصل على نتيجة في قضية لم تفتأ تشغل بالها وبال أسرتها، ألا وهي الزواج. ففي ذات يوم أوضح لها هتلر صراحة أنه ينبغي لها اقصاء كل فكرة زواج من مخيلتها، فلم تتحمل الصدمة بل تناولت مسدسه وحوّلته نحوها وأطلقت النار على صدرها. ولكن الرصاصة لمستها لمسة خفيفة.

وخشي هتلر الفضيحة فأتاها بالزهور والرياحين، وهمس بضع كلمات في أذنها، وأمسك يدها بيده، ونجح في إقناعها بأنه ينبغي له البقاء عازباً من أجل خير ألمانيا. وأكد لها في الوقت نفسه انها ستبقى عشيقته إلى الأبد.

بيد أن هناك غـير هذه المحـاولات الثلاث التي يـرويها التاريخ. فمحاولة الانتحار الرابعة كانت محاولة ناجحة. انها تلك التي ختمت مصير هذه المرأة المفجع. فقد كانت نتيجة هذا الزواج الذي طالما اشتهته ولم يكن إلا مقدمة رحلة شهر العسل إلى الأبدية.

ولكن يخطىء من يعتقد أن حياة هذين العاشقين انقضت كلها بين الحفلات، والاستقبالات، ومحاولات الانتحار. فقد كانت برشتسغادن فردوساً صغيراً إلاهته إيفا براون الخالية البال، المبتسمة. وكان هتلر يلجأ إليها ينشد الراحة والنسيان. وفيما يلي يصف لنا كاننبرغ كيف كان هتلر وايفا براون يقضيان اوقاتهما:

«كانت حياتهما في برغهوف خلواً من المتاعب. ففي الصيف كانا يستيقظان حوالى الساعة التاسعة صباحاً، فيتنزهان في الغابات المجاورة، يصحبهما كلباهما البوليسيان. وفي الشتاء غالباً ما كانا يتراشقان بكتل الجليد. وكانت إيفا شديدة الولع بلعبة «البنغ بونغ»، وعدد من الألعاب الأخرى. وكان هتلر يلاعبها بين آن وآخر. ولكنه كان أخرق نوعاً، ولم يكن قط يحب الألعاب التي تتطلب حذاقة ودقة، ويعتبرها لهواً تافهاً. إلا أنه كان يحب لعبة «البولنغ»، وكثيراً ما كانا يقضيان وقتاً طويلاً في ممارستها.

«فإذا أمطرت السماء لزما المنزل وقتلا الوقت في لعب الورق. وفي بعض الأحيان، وعندما كانا يتناولان الشاي في البهو الفسيح المطل على الشرفة، الذي يدفئه موقد كبير، كنت اطفىء النور الكهربائي واضيء الشموع وأحمل الاكورديون فأعزف لهما من بعيد، فتهدهدهما الموسيقى دون أن تزعجهما، بينما ينتشر الغسق على الوادي. أما الألحان التي كانت تروق لإيفا فهي تلك التي كانت لازمتها سهلة الحفظ

والـدندنـة. وتأتي في طليعتهـا الأنشودة الفـرنسيـة العـذبـة «سأنتظر. . »



ذلك هو الجو الذي عاشت فيه إيفا خلال سنوات السعادة الاثنتي عشرة، تشوبها أحياناً هموم بسيـطة، وبعض اليأس والقنوط، وبعض المغامرات التي سنجيء على ذكـرها فيـما بعد.

«لم يكن تاجها الملكي ظاهراً قط، وكان مجدها دائماً خفياً، ولكنها مع ذلك، وبين جدران ملتقاهما وخلواتهما الصامتة، عرفت أرفع ألوان التمجيد التي يمكن الكبرياء النسائي أن يعرفها لأنها امتلكت الرجل الذي كانت ألمانيا بأسرها تعتبر أن امتلاكه مستحيل.»

وعلى نقيض زميلتها الفرنسية مدام دو بومبادور، كانت عشيقة الدكتاتور النازي غريبة تماماً عن القضايا السياسيـة والاقتصـادية، تكـرّس وقتها للبـاس، والنزهـات، واللهو. فعندما تمّ الانشلوس (ضم النمسا إلى ألمانيا) استقلت إيفا دونما تفكير في المخاطر وأعمال العنف في ذلك الحين، عربة إلى فيينـا لتستمتع ببهجـة الحدث التـاريخي الـذي صنعـه سيدها. ودخلت أحد الفنادق الكبرى ولا مال معهـا ولا حاجات، واستطاعت ان تتصل تلفونياً بالفاتح الذي كان في

رأسه من القضايا غير هذه المحادثة التلفونية. وقد أخّر هتلر مؤتمراً ليصغي إلى سيل الثرثرة الذي تدفّق من فم عشيقته. وأرسل إليها سيارة تنقلها إليه ثم أعادها إلى برلين في طائرته الخاصة.

كانت تلك رحلتها الأولى خارج بافاريا، ولكنها لم تكن الأخيرة. وإذا كانت حياتها كلها قد انقضت بين ميونيخ وقصر برغهوف، فلا يمكن القول انها كانت تعيش أسيرة. فالمخازن الكبرى في برلين طالما استقبلتها. وكانت تغشى المسارح ودور السينما باستمرار. وكثيراً ما كان هتلر يستطلعها رأيها في المسرحيات التي شهدتها، فكانت آراؤها تتأثر بالاستقبال الذي خصها به الممثلون والممثلات بدلاً من قيمة المسرحيات الأدبية الحقيقية.

وقد اقتصرت مطالعاتها على الروايات البوليسية، وبعض الكتب الأدبية الحديثة، ولم يُرَ بين يديها يوماً كتاب جدّي.

وهكذا كانت الأيام تنقضي. سوى أنها كانت تعرف كيف تخصص وقتاً للأعمال. أفلم يشركها حبيبها بأرباح هوفمان من التصوير؟ والواقع أنها ظلت حتى الحرب تُعتبر موظفة عند هوفمان.

وفضلاً عن اقاماتها في برلين كانت إيفا تقضي في ايطاليا بضعة أيام في السنة برفقة شقيقتها غريتي.

الفصل الخامس

هتلر والنساء



هناك طائفة من النساء في حياة هتلر تستحق بعض الاهتمام، نذكر منهنّ زوجة الناشر الألماني والمستشار التجاري الملكي هوغو بروكمان. فقد كانت هذه السيدة تتحدر من أسرة كانتا كوزين الامبراطورية البيزنطية العريقة، ولم تكن امرأة جميلة، بل كانت ذكية اعتادت أن تدعو إلى حفلات الشاي ومآدب العشاء جميع الشخصيات البارزة من حيث الثروة أو الشهرة الشخصية في ميونيخ، أو الذين هم على أبواب الشهرة. وقد اعتبرت هذه الأميرة الرومانية هتلر بين مدعويها، وكانت تناديه باسمه الحربي الذي عُرف به في أوساط الحزب «فولف» (الذئب).

وكانت السيدة هيلين بكشتاين، زوجة كارل بكشتاين، صانع البيانوات الشهير في برلين، تنافس الأميرة في ما يتعلق بهتلر. وكانت أكثر عطفاً منها عليه، تمدّه أحياناً بالمساعدات المادية.

والأسرة الثالثة التي فتحت أبوابها لهتلر كانت أسرة

هانفشتانغل، وعميدها وارث الناشرين الفنيين المشهورين من هذه الأسرة. وقد مال إليه أحد أبناء هذه الأسرة في حين كان هتلر شديد الاعجاب بأخته المغنية إرنا هانفشتانغل.

وفي ذلك العهد أخذ هتلر يتردد على المصور هوفمان، فاجتذبته ابنته هنرييت التي مرّ معنا الحديث عنها.

وفي تلك الأثناء، وبعد اطلاق سراحه من قلعة لاندسبرغ، مثّلت فينيفريد فاغنر التي تعرّف إليها السنة ١٩٢٤ خلال المؤتمر الألماني في بايروت، دوراً هاماً في حياته، فقد أمدّته بالمال في أثناء اعتقاله.

وحوالى نهاية هذا الصعود البطيء إلى دست الحكم تجري مأساة غيلي راوبال، ابنة أخته. أما إيفا براون فتأتي بعد غيلي. وهناك مغامرة يرويها موسمانو تقع بين موت غيلي ولقاء إيفا:

«السنة ١٩٣٢، وفي أثناء جولة سياسية في ألمانيا الشمالية، خفق قلب هتلر للبارونة لافرت، الشقراء ذات العينين الزرقاوين العميقتين، ولم تكن تتجاوز السابعة عشرة. فدعاها إلى ميونيخ، وشربا معاً بضع أقداح من الشاي، وداعب يديها بيديه. وبعد ذلك بعشر سنوات أوردت البارونة الملاحظة التالية:

- لم أكن لأرغب في الزواج من هذا الطاغية الخشن!»

ولم تكن هذه البارونة إلا مرحلة من مراحل هتلر

العاطفية. ولم يمنعه وجود إيفا التي كانت تنتظره في الدارة الصغيرة في ميونيخ من التعرّف إلى نساء حسان، في أغلب الأحيان، بواسطة معاونيه، وعلى رأسهم غوبلز. ونقتصر فيما يلي على ذكر اسماء اللواتي تحدث عنهنّ مؤلفون قاموا بتحقيق دقيق في هذا الصدد. يقول موسمانو في كتابه «عشرة أيام بين هتلر والموت»:

«في السنة **١٩٣٣** التقى الفوهرر نجمة السينما الحسناء ليني ريفنشتال التي حازت شهرة عريضة في عملها كممثلة، ومؤلفة، ومخرجة سينمائية. وقد عُرفت بأنها عشيقة الفوهرر بعد وصوله إلى الحكم.

وكانت أدا كلاين الشقراء، ذات الحيوية الوثابة، من ميونيخ، من الفتيات اللواتي استرعين اهتمام هتلر. ولكنها، عندما تزوجت أخذتها الشفقة عليه فعرّفته بمغنية في إحدى الحانات الليلية تدعى لولا ايب، فأثارت مشاعر الزعيم النازي، ولكنها تزوجت نرويجياً، وذهبت تعيش وإياه في أوسلو. وفيما بعد، وعند احتلال النازيين لبلادها، دفعت غالياً ثمن تدخّلها غير المقصود في غراميات الفوهرر. فطلّقت زوجها في الوقت المناسب، وعادت إلى ألمانيا، وسعت في السر إلى اعلام هتلر بأنها تحت تصرّفه إذا كان ما يزال يبالي بها.

ولكن هتلر لم يكن بحاجة إلى عشر نساء، فبقي عرض لولا دون ردّ.»

ويتحدث الصحفي الفرنسي جان بيار أنغلاد عن غرام هتلر بكريستيان كلايناتل ـ وهي متزوجة اليوم من مهندس كيماوي في زوريخ، وأم لطفلة في الثانية من عمرها. إنها صبية شقراء، طويلة القامة، فياضة الأنوثة، الوحيدة التي تعترف بأن علاقاتها بالفوهرر كانت أكثر من علاقات ودية.

لتقته السنة ١٩٤١، وكان هتلر عائداً من الجبهة الحربية ومارا بمدينة شمنتس، في مقاطعة الساكس، فاغتنم الفرصة لتحية ضحايا غارات السلاح الجوي البريطاني والانحناء أمام المنقذين المخلصين. وكان بين هؤلاء ممرضة صبية أنجدت وحدها عدة أطفال وأولاد. فتوقّف الفوهرر أمامها، وحدّق بها ملياً، ثم سألها عن اسمها، فأجابت:

ـ كريستيان كلايناتل.

ـ أليس عندك أهل وأقرباء في التيرول؟

ـ كلا، أيها الفوهرر، فأسرتي جميعاً من هنا.

ـ هل تقيمين مع أسرتك؟

ـ كلا، إني أقيم وحدي. فأنا متزوجة، وزوجي في الوقت الحاضر مع جنود الاحتلال في تشيكوسلوفاكيا.

فمال هتلر عندئذٍ إلى بورمان ويولد وأسر اليهما:

ـ غريب أمرها، انها تشبه غيلي شبهاً شديداً!

كان ذلك كل ما جرى في هذا اليوم. ولكن في اليوم التالي عرفت كريستيان أنها مدعوة لتناول طعام الغداء مع الفوهرر «لابلائها البلاء الحسن في أثناء الغارات الجوية.»

وخلال تناول الطعام لم يتحدث هتلر إلى مدعوته إلا عن ابنة أخته التي حُرمت صبية من عطفه وحنانه، وعن الشبه الشديد بينهما. ويكتفي بدعوتها لقضاء بضعة أيام في برشتسغادن. فتسأله إذا كان بإمكانها اصطحاب زوجها فيجيبها بالايجاب. ولكن قبل عيد الميلاد بثمانية أيام يقع زوجها في كمين نُصب في البوسنة، ويصاب بجرح بليغ، فتكتب كريستيان إلى برغهوف لتعلم مضيفها بما حدث، وتستأذنه بالذهاب إلى موستار حيث يعالج زوجها. فيطلب إليها على الفور المثول صباح الخميس أمام قائد موقع ميونيخ حيث تكون بانتظارها سيارة تقلّها في الحال إلى برشتسغادن لمقابلة الفوهرر الذي يريد أن يفحص طلبها شخصياً. وقد كان، واتصل الفوهرر رأساً بالمستشفى، فأجابه رئيس الأطباء أن كلايناتل يتحسن ويمكن أن يعطى إجازة نقاهة بعد اسبوعين. وفي الليلة نفسها شهدت كريستيان مأدبة عشاء ضمت سبعة أشخاص أو ثمانية بينهم الزعيم النازي البلجيكي ليون دوغريل. وبعد العشاء غادر هتلر مدعويه، فقادت إيفا براون المدعوة الصبية إلى مخدعها وتحدثتا في مواضيع شتى، ثم ما لبثت إيفا أن قالت:

- ينبغي لي أن أذهب غداً إلى برلين من دون الفوهرر، ولكنه يسألك أن تبقي هنا بضعة أيام. فهو يستلطفك!

وانتشت كريستيان بجو برغهوف، فاستقبلت في اليوم التالي مضيفها في حجرتها.

وبالرغم من وعوده لم يسمح لزوجها بمغادرة تشيكوسلوفاكيا. وكان غالباً ما يدعوها إلى برغهوف أو إلى برلين. سوى أن إيفا التي شجعت علاقاتهما سرعان ما ارتابت في ذلك، وساورتها الظنون. وفيما يلي يروي الصحفي الفرنسي انغلاد كيف انتهت قصة الغرام هذه، فيقول:

«كانت كلمة من إيفا براون إلى أحد أصدقائها في الجيش كافية لكي يُنقل الملازم كلايناتل المسكين الذي لم تتحسن حاله بالرغم من العمليات الجراحية الثلاث التي أجريت له، إلى شمنتس بحيث لم يعد في وسع كريستيان التغيب عن المدينة. ولم تعد تستطيع التذرع ببذل المساعي للاسراع بعودة زوجها أو بالحصول على اذن لزيارته كي تبرّر روحاتها وغدواتها.

وهناك ما هو أدهى من ذلك وأخطر إذ اكتشفت شرطة شمنتس في شباط ١٩٤٣ قضية اختلاس تعويضات ضحايا الحرب ومنكوبيها. وقد اتُهم شقيق كريستيان وأحد أعمامها بأنهما حصلا على تعويضات كبيرة لقاء اضرار وهمية. وتدّعي كريستيان أن أسرتها ذهبت ضحية مؤامرة سياسية واسعة النطاق لأن أخاها وعمها كانا معروفين بميولهما المعادية للنازية. وبالنظر إلى «علاقاتها العليا» لم يُلق القبض على المتهمين. ولم تكن قد رأت هتلر منذ ثلاثة أشهر، فأخذت ترسل إليه البرقية تلو البرقية طالبة مقابلته.

وفي هذه الأثناء يقضي زوجها نحبه في أوائل شهر آذار. وأخيراً تصلها الدعوة المنتظرة للذهاب حالاً إلى ميونيخ. وفي النهاية تنجح كريستيان في الوصول إلى سويسرا دون جواز سفر أو تأشيرة، فتُزج في أحد معتقلات العمل. ولكنها لا تلبث أن تخرج منه بصفتها ممرضة. وفي خريف **١٩٤٣** تتعرّف إلى أحد المهندسين، وتصبح زوجته بعد بضعة أشهر.»

وهذه مجلة «لايف» الأسبوعية الأميركية التي أوفدت عدداً من المخبرين إلى ميونيخ بعد هزيمة ألمانيا وانتحار هتلر وإيفا براون للتحقيق في موضوع علاقات هتلر الغرامية قبل لقائه إيفا براون، تقول في هذا الصدد:

«كان لهتلر علاقة غرامية بفتاتين من ميونيخ، وبسكرتيرة من الحزب النازي السنة **١٩٢٦** .»

أما الدكتور نيرين غن الذي كان على صلة بمكاتب هاينريش هوفمان، والذي قابل إيفا براون في مناسبات عدة، فيقول في كتابه «عرفت إيفا براون»:

«أنا إن رجعت إلى ذكرياتي فلكي أقرر حقيقة تاريخية ولأؤكد أن إيفا براون لم تكن «الصديقة» الوحيدة لهتلر. فأنا أذكر تلك الفتاة الطموح التياهة ليان هيرد، والراقصة ماري مورغان. التي أعتقد أنها كانت تجتذب الدكتاتور الألماني كل مساء إلى مربع سكالا، وذلك قبل بضعة أيام من غزو

بولونيا. وقد عملت في الاستوديو مع الحسناء ليني ريفنشتال، المستشارة الهتلرية الكبرى، والمصورة البارعة التي أغدق عليها الفوهرر الكثير من النعم والامجاد. وكان لي علاقات صداقة ومودة وثيقة العرى مع أولغا تشيكوفا، الفنانة الروسية الفاتنة التي كانت محظية هتلر وقتاً غير قصير. وقد اعترفت لي هي نفسها بذلك.

والواقع ان لديّ البرهان الساطع على ذلك. فبفضل تدخّلها مع المستشار الألماني استطعت أن أنجو من المعتقل للمرة الأولى السنة ١٩٤٢ أما اليوم فأولغا تعيش في موسكو وتنعم بصداقة جنرال روسي. ويشاع أنها قامت بالتجسس لحسابه مجددة بذلك مغامرة ماتاهاري دون أن تلقى مصيرها.

وكثيراً ما حدثتني أولغا عن هتلر. فقد كان يحب صحبة النساء الجميلات، وغالباً ما كان يتردد على «نادي الكواكب» حيث يتحدث مطولاً، وترمقه الفنانات بنظرات الاعجاب. ذلك بأن جلّ ما كان يطلبه من النساء هو الطاعة، والخضوع، والاطراء. وكان يحب أن يلمع وسط هاته النساء الفاتنات. ولا عجب، فهذا الجو من السحر واللهو ينسيه مشاكل الساعة وهمومها. كان يبدو دائمًا لطيفاً أنيساً، وقلما كان يردّ طلباً. وكان يحب التحدث عن الرسم والسينما. ولكنه لم يكن قط عاشقاً كبيراً. فقد كانت مجاملاته خرقاء

حمقاء، وكان إذا ما انفرد بامرأة، يشعر بالضيق، والجبن، والتلبّك.»



نكتفي بهذا القدر من ذكريات الدكتور غن لنختتم هذا الفصل بشهادات بعض أمينات سرّ سيد ألمانيا في هذا الموضوع، وليس ثمة ما يحملهن على الكذب والتدجيل كسواهن. وتوجز إحداهن علاقات هتلر النسائية في كتابها «١٢ سنة بقرب هتلر»، فتقول:

«كان هتلر يعتقد أن الرايش الثالث أنجب أربع نساء متفوقات. الأولى السيدة شولتز ـ كلينك، منظمة الحركة النسائية النازية الماهرة. والثانية السيدة فينيفريد فاغنر التي استطاعت أن تخلق من جديد، في مدينة بايروت، جو روائع فاغنر الموسيقية الساحر. والثالثة السيدة تروست، وقد أُعجب بذوقها الفني الذي واصلت به عمل زوجها الراحل. وقد حوّل إليها لقب «بروفسور» الذي مُنح لزوجها بعد وفاته. وكان للسيدة تروست فيما بعد تأثير بعيد المدى في ذوق هتلر الفني، ونجحت في أن تحمله على مشاطرتها مذهبها الشخصي لانسجام الألوان. وهي وحدها كلِّفت تزيين مساكن هتلر في برلين، وميونيخ، وبرغهوف.

أما السيدة الرابعة التي حازت اعجاب هتلر فكانت ليني

ريفنشتال التي كان يرى فيها ممثلة بارعة، ومنتجة أفلامٍ ذات مهارة فائقة. وقد تحدثت الصحافة العالمية طويلاً عن العلاقات التي يمكن أنِ تكون قد انبثقت عن اعجاب الفوهرر الشديد بهذه الفنانة السينمائية الحسناء. ومن الثابت ان إيفا كانت تكره ليني كرهاً لا مزيد عليه.

ولكن لما كانت النتائج هي التي يُعتدّ بها، أفلم تنتصر إيفا في النهاية على «البومبادور» بختمها قصتها مع العازب الجافل بعرس طبع عليه خاتم الموت؟»

وثمة شهادات كثيرة توضح لنا أن عدداً من النساء أُغرمن بهتلر، وأن بعضهن تسلطت عليهن فكرة وضع طفل يكون هو أباه.

فذات يوم تمكنت فتاة من دخول مسكنه في ميونيخ. ولما وجدت نفسها أمامه انتزعت النصف الأعلى من ثوبها بحركة تنمّ عن الهيام والولع. ومذ ذاك لم يستقبل هتلر بمفرده النساء الغريبات اللواتي على موعد معه لمقابلته خشية حدوث أمور مماثلة لا تسلم عواقبها، ويمكن أن تورّطه في فضيحة ما. وكان أخشى ما يخشاه أن تعمد إحدى النساء إلى اشاعة أنباء تنال من سمعته الشريفة. والواقع ان ذلك يوضح السريّة التامة التي استطاع أن يحيط بها غرامياته.»

* * *

نكتفي بهذا القدر من غراميات هتلر وعلاقاته بالنساء، فهو يلقي الضوء على شخصيته، ويتيح لنا فهم علاقاته بإيفا براون، ومعرفة سلوك إيفا من خيانات عاشقها الذي لم يكن طائشاً.

كان هتلر في الحب بورجوازياً صغيراً. وقد وجد في أوساط الطبقة البورجوازية الصغيرة المرأتين اللتين أحبهما حباً حقيقياً وهما: غيلي وإيفا. وقد سبق أن تحدثنا عن وجوه الاختلاف بينهما، إلا أنهما شديدتا الشبه في أكثر من ناحية. فكلتاهما فتاة دمثة الأخلاق، لينة الجانب، عاطفية، غير شبقة، تستسلم حناناً أو غراماً، ولكن رفيقها لا أهمية له، ولا حول له ولا طول، حالته متواضعة، إن كان اميل موريس (رفيق غيلي)، أو بعض شبان ميونيخ (رفاق إيفا). وقد مالتا إلى فنانين، فعرفت كل منهما فناناً من المرتبة الثانية وأُعجبت به. وكلتاهما هامت بفنان فاشل نجح في السياسة هو: ادولف هتلر. وكلتاهما تنتهي النهاية المفجعة نفسها: الانتحار. سوى أن إيفا وحدها يسعدها الحظ بأن تجرّ معها حبيبها إلى العالم الآخر.

أما هتلر، البورجوازي، والفنان الفاشل، فانه يضمر الاعجاب القريب من الحب للنساء اللواتي نجحن في الحقل الذي فشل فيه: ليني ريفنشتال، والسيدة تروست. فهو يشعر بأنه يشاطرهما مجدهما بتشجيعه فنهما، فتشرف ليني على صناعة

السينما الألمانية، وتشرف السيدة تروست على مدرسة الهندسة في الرايش الثالث.

وبين علاقاته العابرة تعتبر علاقاته بالفنانات، والراقصات، والممثلات أقربها إلى الحقيقة والواقع، والتصديق. فهو يعتقد أن بامكانهن وحدهن أن يفهمنه، مع العلم أنه ينكر على المرأة كل طاقة سياسية. فبصفته فناناً يصغي إليهن ويحبهن.

وهو يضع بعضهن على قاعدة مرتفعة بحيث يبدو له مستحيلاً أن تكون قد ربطت بينه وبينهن غير العلاقات «الروحية». تلك، مثلاً، قضيته مع فينيفريد فاغنر، الكاهنة في هيكل عبادة الموسيقي الأشهر، ريتشارد فاغنر.

ويحسّ، وهو البورجوازي، بالحب للبورجوازيين الذين حالفهم الحظ وواتتهم الثروة منذ عدة أجيال. فبحياته العدائي أغوى السيدة بروكمان، أو الأميرة كنتا كوزين.

وللبورجوازي الصغير كذلك وقائع ومغامرات قصيرة لم يكن لها غد كأي بورجوازي صغير. فرفيقاته ينتمين إلى الوسط نفسه الذي ينتمي إليه. فهن لا يحركن فيه العواطف. وهو جريء معهن جرأة لا ـيقبلـ له عليها مع نساء ينتمين إلى طبقة أعلى شأناً. فالقدر هو الذي وضعهن في طريقه، أو الظروف الطارئة، كما هي الحال في قضية كريستيان كلايناتل التي تشبه غيلي شبهاً كبيراً.

والآن يمكننا أن نتساءل لماذا كانت علاقاته بغيلي وإيفا أمتن وأطول، وهما تنتميان إلى هذه الفئة؟ ولكن الجواب سهل جداً. ففيما يتعلق بغيلي نرى المحرّض الخجول يحمل سلاحاً منحه إياه القدر: فهو عم الفتاة التي يحب، وهي - بالطبع - طوع له. وتدفعه روابطهما العائلية دفعة واحدة إلى مقام رفيع ترضخ له غيلي دون مناقشة. انها القصة القديمة لحب الفتيات للوصي عليهن. وعندما تعوّل غيلي على الخلاص من هذا النفود، وهذه السلطة المطلقة، فإنها لا تجد إلا حلاً واحداً: الموت.

أما إيفا فقد فرضت نفسها على حبيبها لأنها عرفته خير معرفة. فسيكولوجيتها لم تخطىء. وهي تعلم كذلك متى يمكنها اللجوء إلى التهويل بالانتحار، ومتى يمكنها أن تغفر له بعض الإهمال، أو ان تغمض عينيها عنه. ولم يكن حبه ليُشبع نهم جسدها، ولم تكن الغيرة الجسدية لتعرف إلى نفسه سبيلاً. فلا تخشى جانب كريستيان كلاديناتل، وتراها تغادر برشتسغادن لتخلي لهما الجو، لأنها تعرف أن بمعاكستها رغبة الفوهرر يمكن أن تضاعف رغبته. ولكنها عندما تلاحظ أن هذه العلاقة قد امتدت فإنها تضع لها حداً بواسطة «العصابة» دون أن تتدخل شخصياً.

وغالباً ما تتحسس الخطر، وتتبين بعض التفوق لدى منافساتها يمكن أن يغري الفوهرر ويفتنه. عندئذ تتغلب عليها

غريزتها النسائية، فتبكي، وتشهق، وتهدد بالانتحار، وتمسي خرقاء عصبية المزاج، سريعة الحدة، والغضب، والاثارة.

وقد أحدثت ليني ريفنشتال مثل ردّ الفعل هذا، وكذلك الآنسة متفورد، إلا أن إيفا تبالغ في تصوير الخطر. وتجمّل حبيبها بصفات ومطامح ليست له. فيعود البورجوازي الصغير دائماً إلى أحضان البورجوازية الصغيرة.

الفصل السادس

التمهيد للموت



«تحت قصر المستشارية والحديقة، وعلى عمق خمسين قدماً تحت الأرض، شُيِّد ملجأ خلال الحرب. ويمكن الآتي من المستشارية الوصول إليه بسلّم يؤدي إلى تحت، عبر مكتب رئيس الخدم. وفي أسفل هذا السلّم فسحة ضيقة مغلقة بثلاثة أبواب محكمة لا ينفذ خلالها الهواء أو الماء ـ أحدها يوصد مدخل مكتب رئيس الخدم ويدعى ممر كانبرغ، والثاني يتيح الوصول إلى سلّم خارجي يؤدي إلى حديقة وزارة الشؤون الخارجية، والثالث يؤدي إلى الملجأ.

ويتألف الملجأ هذا من قسمين: القسم الأول، وفيه اثنتا عشرة غرفة صغيرة، كل ست منها تقوم على جانب من الممر الأوسط. انها مستودعات، ومساكن الخدم، والمطبخ الذي تحضّر فيه وجبات هتلر النباتية.

وفي طرف الممر المركزي الذي كان يُستخدم كذلك قاعة طعام عام لسكان الملجأ يقوم سلّم لولبي يؤدي إلى ملجأ آخر أعمق وأكثر اتساعاً. انه ملجأ الفوهرر الخاص الذي يدور

فيه المشهد الأخير من المأساة النازية.

يتألف ملجأ الفوهرر من ثماني عشرة حجرة ضيقة، ذات شكل غريب، وغير مريحة، ومن ممر مركزي يشطره حاجز شطرين، أحدهما يُستعمل حجرة عامة للانتظار، وتُفتح عليه أبـواب سلسلة من الحجـرات، هي حجـرات الانـارة، والتهوية، والهاتف، والحرس، وامناء السر، والمنتفعات.

ووراء ذلك يقوم قدس الأقداس. ويصبح الممر المركزي قاعة يعقد فيها هتلر اجتماعاتـه مع أركـان حربـه والقادة العسكريين كل يوم لدرس حالـة البلاد. وهنـاك باب إلى اليسار يُفتح على ست حجرات هي مسكن هتلر وإيفا براون الخاص. وكان لإيفا مخدع ـ صالون، وحمّام، وغرفة للزينة. وكان لهتلر مخدع، وقاعة مكتب. وكانت الغرفة السادسـة بمثابة قاعة انتظار.

وهناك بابان آخران إلى اليسار كذلك، أحدهما باب حجرة الخرائط الضيقة، وتُستخـدم لعقد الاجتمـاعات الصغيـرة، والآخر باب الحجرة التي كان يأخذ فيها أفراد الشرطة السرية الذين يحرسون الفوهرر قسطهم من الراحة. وفي طرفها يقوم سلّم يؤدي إلى برج للمراقبة مشيّد بالاسمنت يرتفع فوق مستوى الأرض، ولكنه لم ينجز.

وإلى يمـين الممـر تقـوم حجـرات الـطبيبـين مـوريـل وشترومبفيغر، ومستوصف هذا الأخير. فقد أمـره هتلر في

مطلع نيسان أن يجهّز غرفة للاسعاف في المستشارية. وكانت حجرة الجراحة التي أقامها شترومبفيغر في ملجأ هتلر مجهزة بأدواته الخاصة.

وفي طرف الممر باب يؤدي إلى غرفة انتظار صغيرة تُستخدم خزانة للملابس، ومن هنا، وبواسطة أربع طبقات من السلالم المشيّدة بالاسمنت، يصعد المرء إلى حديقة قصر المستشارية.»

هذا هو المكان الذي قضت فيه إيفا براون الأيام الأخيرة من حياتها القصيرة، كما يصفه لنا القاضي ميكائيل موسمانو في كتابه «عشرة أيام بين هتلر والموت». فلما وصلت لمشاطرة حبيبها مصيره كانت المدفعية الروسية تقصف العاصمة الألمانية، وكان السكان لا يغادرون الملاجىء، وسراديب المترو أو المجارير التي تهتز جدرانها ليل نهار من تفجّر القنابل.

ولكننا نخطىء إذا اعتقدنا أن شبح نهايتها الوشيكة كان يلازم مخيلتها ويقضّ عليها مضجعها. حتى انها كانت تنجح، وسط السعاة والقادة العسكريين الكبار المهرولين إلى ملجأ الفوهرر ليحملوا إليه أنباء المعركة الفاشلة، في استقدام خبراء في شؤون التجميل لتصفيف شعرها وعمل «ماكياج» لها لكي تروق حتى النهاية في عينيّ الفوهرر.

ولكن هيهات! فهتلر لم يعد في وضع يسمح له بأن يقدّر فتنة حسنائه الشقراء. فلقد أمسى حطاماً مرتجفاً، فريسة

للرعشات، محدودباً، مشلولاً، متورم الوجه، مغموراً بالحوادث التي لم يعد له سلطان عليها. ولم يكن ليستعيد حيويته إلا ليندفع كعادته في توجيه الشتائم العنيفة ضد رأسماليي الغرب وبرابرة الشرق.

والمشهد التالي الذي رأته إيفا بالرغم منها قد أدهشها. فقد كان باب حجرة هتلر مفتوحاً قليلاً، وهتلر يبدو في سريره أشبه بالجثة منه بالانسان الحي بعد أن تناول منذ بضع ساعات جرعة كبيرة من المخدّر، وراح في سبات عميق. ودخل الدكتور موريل وبيده حقنة سحب بها محتويات انبوبة وحاول أن يرفع كمّ هتلر الذي هبّ واقفاً كمن مسّه تيار كهربائي، وأمسك بكتف طبيبه قائلاً:

ـ آخ! وأنت كذلك خائن، ومشترك في المؤامرة؟!

فانكمش موريل على نفسه، وخفض رأسه وقال مذعوراً:

ـ لا! أيها الفوهرر، لقد جئت لأحقنك بالهورمونات كعادتي في كل يوم.

ـ انك تكذب! انك تكذب! انها حقنة مورفين. فأنتم جميعاً تريدون أن تجبروني على مغادرة برلين.

فتراجع موريل مرتعشاً، وقد أرعبته سورة الغضب الجنوني، وانحنى أمامه متوسلاً:

ـ انت مخطىء، أيها الفوهرر. فأنا دائماً طبيبك المخلص.

وبلغ صوت الفوهرر حدود الهستيريا:

ـ مخلص؟! ليس ثمة انسان مخلص لي! الجميع يخونني!

كلكم خونة. لا أريد أن أراكم أبداً وإلا أمرت بإعدامكم بالرصاص!

فشرق موريل بالدمع، وأخذ جسمه يرتعش، والحقنة ما تزال في يده، وما لبث أن خرّ على ركبتيه وتمتم:

- لا تقل لي ذلك. فقد كنت دائماً مخلصاً لك كالكلب. فلا تطردني كمجرم.

ولكن ذراع الفوهرر المرتجفة أشارت إلى الباب، فنهض موريل وخرج متراجعاً، متقوساً، تسيل الدموع على خديه. وتهالك هتلر على مقعده. عندئذٍ دخلت إيفا وهي تمشي على رؤوس أصابعها، متوقعة أن يطردها بالعنف نفسه. سوى انها ما كادت تقترب منه حتى ألقى نفسه بين ذراعيها ووضع رأسه على كتفها هامساً:

- لم يبقَ لي سواك، يا بنيتي! لم يبق لي سواك!

فضمته إليها كما تضمّ الأم وليدها، ولبثا هكذا حتى تغلّب على نوبته العصبية. وما هي إلا نصف ساعة حتى كان يترأس اجتماعاً لهيئة اركان الحرب، ويُصدر الأوامر لمحاولة وقف الزحف الأحمر.

ان أي امرأة أخرى أقلّ اتزاناً من إيفا لم تكن لتستطيع تحمّل هذه الحياة اسبوعاً واحداً. إلا أنها كانت تستمد من تلك الترّهات قوى جديدة. لم يكن في مقدورها أن تظل العشيقة، فأمست ممرضة الرجل الذي تحبه!

وها هي من جديد بقربه تنسى سائر العالم. لم تعد نزوات جسدها تعني شيئاً في نظرها، كما لو كانت في نفسها امرأتان تختلفان تماماً إحداهما عن الأخرى.

والواقع أن إيفا لم تكن المرأة الوحيدة المحبوسة في هذا العالم الصغير تحت الأرض المخصص للقضايا العسكرية الصرف. ففي كل لحظة كانت تلتقي في الممر بإحدى امينات سرّ الفوهرر، وبعضهن قسا عليها جداً في حكمه. فهناك الآنسة مانزيالي الحسناء التيرولية، المغرية، المخلصة، وغردا كريستيان البولونية ذات الجمال الغريب، والابتسامة الهادئة، وتراودل يونغه، أصغرهن ـ اذ لا تتجاوز الخامسة والعشرين ـ ذات النظرات البراقة. يضاف إلى هذه الباقة من النساء السيدة غوبلز التي بدأ جمالها يذبل، ولكن اخلاصها لزوجها، واخلاصها للفوهرر لم يتطرّق اليهما الشك قط. فقد كان شعرها الأشقر ينير هذا الجو الرمادي من الاسمنت المسلح.

وكان هناك كذلك إلزه كروجر، امينة سرّ مارتن بورمان الصبية، ويوهانا فولف، وهي امينة سرّه أيضاً، جميلة ولكنها مغمورة، والبارونة ارمنغارد فون فارو التي احتلّ الروس املاكها، فحملها الحرس الخاص إلى الملجأ وفضلاً عن هؤلاء جميعاً كان هناك أولاد غوبلز الخمسة، وبلوندي، كلبة الفوهرر.

تلك هي العناصر التي كانت رؤيتها تتيح للمحاربين أن ينسوا لبضع لحظات هموم الحرب والقتال.

وفي ٢٢ نيسان جمع هتلر حول كؤوس الشاي الحسان الشقر والسمر اللواتي يشاطرنه حياته. وراح يداعب شعره الأشيب، ثم أخرج من جيبه أنبوباً صغيراً لماعاً لا يزيد على عشرة سنتمترات طولاً، وسنتمتر ونصف قطراً، تسمّرت فيه الأنظار. وجعل يلهو به حيناً، ثم رفع غطاءه، وصب ما بداخله على كفه فإذا هو أنبوب آخر يشف منه سائل. وما لبث أن قال:

ـ هذا سيانور البوتاسيوم، وفي الأنبوب ما يكفي لقتل أكبر رجل وأضخم امرأة!

وسألت تراودل يونغه بسذاجة:

ـ كيف يفعل هذا السم؟

فأوضح لها هتلر بطول اناة:

ـ تضعين هذا الانبوب الصغير في فمك وتقضمينه كالمُلبَّساً. وكانت الآنسة مانزيالي تشرب الشاي فعضت على لسانها خطأً وأراقت الشاي. وابتسمت غردا كريستيان ابتسامة ساخرة. اما إيفا فقد شدّت بيديها على مسندَي مقعدها وكانت ترتدي ثوباً أزرق بديعاً تزيّنه زهرة على الكتف اليسرى.

انها الوحيدة التي تعلم علمًا أكيداً أن حياتها ستنتهي على هذه الصورة. فالباقيات يمكنهن أن ينجين من مصير سيدهن. في حين قررت هي أن تبقى أمينة له ومخلصة حتى الموت. انها خائفة، ولكن قرارها نهائي. وبصوت مرتعش سألت:

- هل يؤلم هذا السم؟ لا فرق لديّ أن أموت أو أبقى حية، بيد أنني لا أريد أن أتألم.

وهناك سيدة واحدة ستشاطرها مصيرها: انها السيدة غوبلز، ولكنها لا تنبس ببنت شفة.

* * *

في ٢٠ نيسان أقبل على الملجأ جميع الرجالات النازيين الذين استطاعوا الوصول إلى برلين ليقدموا تهانئهم إلى الفوهرر لمناسبة عيد ميلاده. وكثيرون عادوا من حيث أتوا، بعضهم على أمل النجاة بأنفسهم، والبعض الآخر، مثل شبير، من اليأس لرؤية العالم الذي طمحوا إلى تشييده ينهار.

أما الذين بقوا في الملجأ فقد نظّموا حياتهم على قدر الامكان. وقد وصفت البارونة ارمنغارد فون فارو التي نشرت مذكراتها، الأيام الأخيرة التي قضوها في الملجأ. كانت امرأة شقراء، مرحة، بدينة، ضاحكة العينين، قالت:

«كان الجميع، رجالاً ونساء، يعملون على اغراق همومهم باحتساء الخمر. كانوا يشربون، ويأكلون، ويدخنون بكثرة. وكنا نقيم الاحتفالات الراقصة في ملجأنا الخاص.»

وكان هتلر كلما شعر بدنو أجل حكمه يطلب إلى الحسان المحيطات به أن يبقين حوله لأنه كان بحاجة إلى اعجابهن

وتقديسهن إياه. وكنّ يصغين إليه، ويبتسمن له، ويوافقنه على أقواله. وكانت إيفا قائدة كتيبة التصفيق هذه.

وقد روت الآنسة تراودل يونغه فيما بعد أن هتلر، حتى النهاية، لم يفهم أسباب هزائمه حتى لو كانت تلك نتائج أوامره الشخصية. فهو دائمًا يعزو انكساراته إلى عدم مقدرة قادته العسكريين.

وكانت إيفا تنسحب إلى غرفتها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فتحتسي الشمبانيا التي تختزن منها كميات وافرة، وتستمع إلى اسطوانات تديرها على فونوغراف عتيق تنبعث منها ألحان طفولتها، وألحان شعبية قديمة تطرب لها نفسها. وفي ساعات الوحدة والانفراد هذه كانت اصابعها تلاعب الانبوب الزجاجي المحتوي على جرعة سيانور البوتاسيوم. وماذا هناك إذا أفلتته من يدها فتحطّم؟ فأدي لديه درج مليء بالأنابيب الجهنمية. وهو يوزعها بسخاء فائق. ولا تفارق فكرة الموت خاطر أحد من سكان الملجأ. وها هي إيفا تستمع من خلال الحاجز إلى صوت ماغدا غوبلز الجازم:

ـ أيها الفوهرر! أنا على اتفاق مع زوجي. فعندما يأتي الموت لنموت نحن الاثنين في سبيل الفوهرر فإن اطفالنا سيتبعوننا إلى القبر لأنهم بدون الفوهرر لن ينتظروا شيئاً من هذه الحياة.

وتطغى على صوتها قهقهات الأطفال وهتافهم، من هيلده،

البالغة اثنتي عشرة سنة، إلى هايده، البالغة خمس سنوات.
انهم، بلاوعي الطفولة، يعدّون طلقات المدافع التي تهزّ
جدران الاسمنت المسلح السميكة.

* * *

الأحداث السياسية والعسكرية تتوالى باطراد، ولكن إيفا
لا تبالي. فهي كجان دارك سجينة حجرتها تتأهب للموت،
بينما يتجادل الرجال حول الأحداث الحاضرة والماضية. وهي،
التي طالما أحبت الحياة وما تزال تشعر أن الصبا ملء برديها،
تجد صعوبة في الاعتقاد بأن أجلها قد دنا.

الفصل السابع

المجزرة



انها النهاية!

فالذين بقوا في الملجأ لا يشكّون مطلقاً في أن الموت هو خاتمة أيام المحنة التي مرّوا بها. وهذا الموت يبدو كالخلاص بعد ساعات من التوتر والقلق. أما الذين لم تستدعِ اعمالهم بقاءهم في الملجأ فقد ذهبوا الواحد تلو الآخر: فونَ غرايم، رايتش، أمينات السر. ولم يبقَ غير السيدة يونغه التي ستحرر وصية هتلر السياسية.

في ذلك الصباح خرجت إيفا من حجرة حبيبها ووجهها يطفح بشراً، فتساءل الجميع، وشبح الموت يتراقص أمامهم، عما إذا كان قد أصابها مسّ. وكانت عيناها تلمعان، ومشيتها هادئة، وما لبثت أن أعلنت:

ـ ستسمعون اليوم نبأ تدهشون له!

ويستدعي هتلر السيدة يونغه كما لو كان يريد أن يؤمّن على كلامها، ليملي عليها بضعة سطور. ويبقى الباب مفتوحاً بحيث يستطيع الجميع سماعَ ما سيقول. ويصغون لأنه لم

يعد هناك سر للكتمان في هذا العالم المصغّر. ويرتفع صوت الفوهرر هادئاً، متزناً، واضحاً:

ـ أما بعد أن انتهت سنوات النضال والكفاح التي ابعدتني عن فكرة الزواج وتبعاته وقيوده، فقد قررت الآن، قبل انتهاء أجلي، أن أتزوج هذه الفتاة التي ظلت السنين الطوال الصديقة الصدوق، وجاءت بملء اختيارها إلى هذه المدينة المحاصرة لتشاركني مصيري.

واعتدلت إيفا براون في جلستها، وأجالت طرفها حواليها بفخر واعتزاز. فهذا حبيبها يمنحها أخيراً ما كانت تنتظره طوال اثنتي عشرة سنة. وما يهمها إن سلبها الموت نعمة هذا الاتحاد بعد بضع سنوات. فستموت زوجة الفوهرر، هذا الرجل الذي قاد مصير عشرات الملايين من البشر، ولا يحيط به الآن أكثر من عشرة من اتباعه المخلصين. وواصل هتلر كلامه:

ـ وبمحض ارادتها ستسير معي إلى الموت.

بيد أن إيفا لا تصغي. فالموت ليس سوى أمر عادي أمام أزلية الحب والعبادة. وتبلغ الدهشة من الموجودين مبلغاً كبيراً، فينسون حتى تهنئتها. ويصل في تلك الأثناء غوبلز يرافقه فالتر فاغنر، ضابط الأحوال الشخصية. ويهرع الجميع إلى الحجرة الضيقة، وقد جلس ادولف وإيفا بهدوء يصغيان إلى المراسم التقليدية التي تربطهما بالرباط المقدس، وتشدّ أواصر اتحادهما في السرّاء والضرّاء.

ويتبادلان النظرات. وتجري دموع السعادة على وجنتي ايفا. ويضع هتلر يداً خرقاء على كتف عروسه ويجذبها إليه، ويقبّلها.

وشخرت السيدة يونغه، وشهقت ماغدا غوبلز، ونهض الجميع لتهنئة العروسين تهانىء يصعب التلفظ بها لأن السعادة التي يمكن أن يتمنوها لهما هي ما سيلاقيان في العالم الآخر.

كانت إيفا ترتدي ثوباً من الحرير الأسود. تطفح بشراً وسعادة، وتداعب بأناملها عقد اللؤلؤ الذي يزيّن جيدها. ان عرساً فخماً يقام في كاتدرائية لم يكن ليسعدها أكثر من ذلك. ويقدّم فاغنر إليها سجل الأحوال الشخصية لتوقّع عليه، فتسرع في كتابة اسمها بيد ثابتة: «إيفا ب.» فيبدي لها الموظف هذه الملاحظة:

ـ لم يعد اسمك هكذا.

فتنفجر ضاحكة وتصلح خطأها: «إيفا هتلر، مولودة براون».

ودارت كؤوس الشمبانيا، ونقض هتلر نفسه مبادئه وغمس شفتيه في كأسه. وبعد ذلك غادر الجميع القاعة بمن فيهم إيفا التي لم تبق مع عريسها لأنه يريد أن يملي وصيته السياسية على أمينة سرّه السيدة يونغه.

وبعد ساعات دارت الشمبانيا على الحضور، من جديد، ولم تكن إيفا قد توقفت عن الشرب قط. لقد هبّت على

الملجأ ريح جنونية، فالجميع في هرج ومرج، يغنون ويشربون، في حين تقصف المدفعية الروسية كما لو كانت تحتفل بزفاف ملكي. وفي الساعة الخامسة صباحاً يقفل هتلر وعروسه باب مخدعهما.

في خلال ليلة العرس هذه غادر الملجأ أشخاص عديدون، وتسللوا عبر الدمار على أمل الهرب من الكماشة التي تؤلفها القوات السوفياتية. وما أن استيقظ هتلر من النوم حتى سمع نبأ المصير الذي آل إليه موسوليني وعشيقته كلارا بيتاتشي على يد الانصار الايطاليين. وإذ تقرأ إيفا البرقية تجهش بالبكاء، وتسأله هل ينتظرهما هذا المصير؟ فيمسك بكتف زوجته المستهامة بيد ثابتة ـ فهو بعد أن قرر أن يموت بدا انه استعاد بعض نشاطه وصحته ـ ويقول:

ـ كلا، فالنار ستلتهم جسدينا، ولن يبقى منهما شيء، حتى ولا رماد.

ويشرع في التأهب للموت، فيُخرج انبوبة من الدرج ويستدعي الدكتور شتومبفيغر ويناوله الانبوبة قائلاً:

ـ لقد أعطاني إياها هملر. انها سمّ! ولكن هملر خائن. هل ان مفعول هذا السم هو إياه في الكلب والانسان على السواء؟

فهزّ الطبيب رأسه، فقال هتلر:

ـ جرّبه في الكلبة بلوندي.

وما هي إلا ثوانٍ حتى تعالى العواء من شدة الألم الذي لا

يُحتمل. ان الكلبة تحتضر. وترتمي إيفا وهي مرتدية مباذلها فوق السرير، وتجهش في البكاء والنحيب. فلم تكن تعتقد أن الموت سيكون معقَّداً بطيئاً هكذا.

ويعود الطبيب فيعلن موت بلوندي، فيذهب به هتلر برباطة جأش ليناقشه في التفاصيل الأخيرة للموت، فيوضح شتومبفيغر أن مفعول السم ليس فورياً، وينبغي أن يرافقه طلق ناري في الفم. فيوافق هتلر على ذلك، ويعودان معاً الى إيفا، ويبتدرها هتلر بقوله:

ـ ان الدكتور شتومبفيغر سيرينا كيف ينبغي أن نموت، فاصغي إلى شروحه.

وتلتفت إليه زائغة البصر، ووجهها غارق بالدموع. انها شاحبة اللون، تضع أمام فمها منديلاً لتمنع أسنانها من أن تصطك، وتتمتم:

ـ أجل، أجل!

ويُخرج هتلر مسدسه من غلافه، ويأخذ الطبيب في الشرح قائلاً:

ـ ينبغي قضم الانبوبة ومن ثم الضغط على زناد المسدس الذي تكون فوهته داخل الفم. انه أفضل حلّ!

ولكي يتأكد الفوهرر من أنه فهم جيداً ما ينبغي له عمله يدخل فوهة المسدس بين أسنانه ، ويمثّل العملية:

ـ أهكذا؟

ـ أجل.

ثم يلتفت إلى إيفا فيسألها:
ـ أفهمت؟
ـ أجل، أجل.
ويسأله الدكتور:
ـ أتريد أن أبقى؟
ـ كلا، لا فائدة من بقائك. يمكنك أن تذهب.

فيخرج بعد ان ينحني مودعاً. فينادي هتلر رقيباً من الحرس الأسود ويقول له:

ـ يجب قتل جراء بلوندي الخمسة ودفنها وإلا ماتت جوعاً.

ويعود إلى إيفا فتخفي رأسها بسترته وتتمتم:
ـ آه، يا أدي، انني خائفة!

فيدغدغ كتفها بحنان ابوي. لقد عاد حامياً، وهو على عتبة الموت، كما كان سابقاً. وتُسمع طلقات خمس من الجانب الآخر من الحاجز. فقد نفّذ الرقيب أمر الفوهرر. وما يكاد يتلاشى صدى الطلقات حتى يتعالى شهيق أولاد غوبلز لاكتشافهم الجثث الصغيرة الملطخة بالدم.

ويدعى هتلر إلى تسوية قضايا جديدة مع آخر قادة أركان حربه، فتبقى إيفا وحدها جالسة أمام منضدة الزينة، فتصبغ أظافرها بالطلاء الأحمر بحيث تبدو أطراف أناملها شعلة من

النار تنسجم مع ألسنة اللهيب التي ستتراقص عما قريب في الحديقة وهي تلتهم جسدها.

وتنتصب مذعورة أمام المنضدة لمجرد تفكيرها بأن أناملها الجميلة ستتحوّل فحمًا. وتعبر الغرفة وتتجه إلى خزانة ثيابها، فتلامس ملابسها المتقنة التي عرفت انتصارات في حفلات اللهو والرقص. وتتوقف لحظة أمام معطف جميل من الفرو الفضي وتتمتم بمرارة:

- لن أحتاج إليه عندما أذهب إلى الحفلة المقبلة في الحديقة!

ثم تنادي السيدة يونغه! وتعطيها هذا المعطف الشتوي.

وتقترب ساعة الموت، ساعة الحقيقة، شيئاً فشيئاً. ليس هناك من يحرّك ساكناً: بعضهم يغط في نومه، وبعضهم يكتب، وبعضهم يقرأ، وبعضهم يدخن، إلا أولاد غوبلز فانهم يعدون في الممرات وهم يتنادون ويضحكون.

وقد اعترف الكابتن بولت بقوله: «الحقيقة اننا كنا نرقب أن ينتحر هتلر لنصبح أحراراً في تصرّفنا بعد أن دنت النهاية.»

ودقت ساعة الغداء فاجتمع سكان الملجأ جميعاً حول المائدة لتناول الوجبة الأخيرة، وقد اتشحت إيفا بالسواد، وشحبت ملامحها. أما هتلر فكان يرتدي كعادته سراويل

سوداء وسترة رمادية. وكان أصفر اللون، لا حياة في نظراته. وطال السكون المزعج، ولم يعرف أحد من الموجودين أي موضوع يخوض في مثل هذه الظروف. وفي ختام الوجبة انتشرت رائحة الوقود في الملجأ، فنظر الضيوف بعضهم إلى بعض، وعرفوا أن موت الفوهرر قد تحدد في ذلك اليوم.

وأخيراً نهض الجميع، وأخذ هتلر يصافحهم واحداً واحداً، متمتمًا كلمات غير مفهومة. ووقفت إيفا وراءه منتصبة القامة، مطبقة اليدين. أليس لذلك من نهاية؟

ولكن ينبغي لها أن تقاسي محنتها الشديدة وتتحمّلها حتى النهاية، كما ينبغي لها أن تشهد ثورة اعصاب ماغدا غوبلز التي هتفت:

ـ كلا، ايها الفوهرر، لا تفعل ما أنت عازم عليه! فنحن بحاجة إليك. ان ألمانيا تنتظرك، والعالم بحاجة ماسة إليك!

وينبغي لها كذلك أن تنتظر حتى يتلف زوجها وثائقه برفقة السيدة يونغه، ويوضح تعليماته. وينبغي لها كذلك أن تصافح بدورها الحاضرين وتحبس دمعها، وتجد القوة لتقول للسيدة يونغه، مستودع سرها الأخير:

ـ اذهبي الى بافاريا واروي قصة حبي!

وتعود إلى زوجها الذي يفسح لها المجال لتدخل قبله إلى مكتبه، ثم يلحق بها ويوصد الباب. ويقف الحارس غوانش

جامداً على الباب، وينسحب المدعوون إلى حجراتهم، وتمرّ دقائق، ويدوّي صوت طلق ناري.

* * *

ان موت هتلر وإيفا براون كثيراً ما كان موضع شك، الأمر الذي يحملنا على تقديم الوثيقة التي تروي ذلك دون أن نحاول اضافة شيء إليها. والوثيقة هذه هي ثمرة استجوابات متفقة للآنسة كروجر والسيدة كريستيان اللتين سمعتا القصة من فم لينغه، وصيف هتلر الأمين، والسيدة يونغه التي افضى إليها غوانش بالقصة. وقد فحص ارتور اكسمان الجثمانين شخصياً. وحمل إريك كامبكا، سائق هتلر، جثمان إيفا براون.

«عندما دوّى الطلق الناري في مكتب هتلر انطلق اكسمان وغوبلز ووصلا إلى باب المكتب، ففسح غوانش لهما الطريق ليدخلا وما أن اصبحا داخل الحجرة حتى تراجعا أمام الحقيقة. كان هتلر مكبّاً على وجهه، منحنياً من فوق الصوفا، وذراعاه مشبوحتان، ورأسه على منضدة صغيرة، تسيل الدماء على السجادة من فمه المفتوح.

أما مسدسه فكان ملقى على الأرض عن يمينه.

وكان رأس إيفا مسنوداً إلى كتف هتلر اليسرى، وفمها نصف مفتوح، وعيناها نصف مغمضتين. أما مسدسها فكان

ملقى عند قدميها، ولكن لم تُطلِق منه النار. ومع ذلك لم تكن تتنفس.

دخل الدكتور شتومبفيغر وفحص الجثتين ثم أجلس جثمان ادولف هتلر ولاحظ ان على كلا الصدغين دماء. فقد مزّق ضغط الانفجار في الفم العروق في صدغي الفوهرر. لقد مات هتلر!

أما إيفا فإن الطابع المرتسم على وجهها، وموقع يـدها ومسدسها يدلان دلالة أكيدة على انها فشلت في تنفيذ المرحلة الثانية من الانتحار. فالضعف والهلع اللذان اعترياها بعد أن شربت السم كانا فوق طاقتها، فلم تجد القوة الضـرورية لضغط زناد المسدس. ولكن سيانور البوتاسيوم كان كافياً. لقد ماتت إيفا!»

* * *

هكذا تنتهي قصة الغرام الغريبة هذه، أغمض قصة في القرن العشرين. سوى أن نهاية إيفا التي ستبقى في التاريخ معروفة باسم إيفا براون، بالرغم من زواجها، ستجعلهـا جـديرة بـأن تحتلّ مقـامها في قـاعة أشهـر العـاشقـات في التاريخ.